اضـــــواء جـــديـــدة

على مقاومة الامير عبد القادر الجزائرى للاستعمار الفرنسى للجزائر (دراسة وثائقية)

دكتـــــور
ماهر عطيـــة شـــعبان
معهد البحوث والدراسات الافريقية
جامعة القاهرة
١٩٩٤

المحتويـــات :

مقدمـــة :

ـ تطور العلاقات الفرنسية ـ الجزائرية •
ـ المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسى •
ـ دولة الأمير عبد القادر •
ـ الصراع بين الأمير عبد القادر والفرنسيين •
ـ الأمير عبد القادر والطريقة التيجانية •
ـ القضاء على مقاومة الامير •

خـــــاتمة

مكتبة البحث

الوثـــائـــق •

المراجع العربية والمعربة •

المراجع الأجنبية •

الفهرســـت •

مقـدمة :

هاجر عدد كبير من المسلمين الذين يقطنون بلاد الاندلس وذلك بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين هناك فى عام ١٤٩٢ ، وبدأت موجة صليبية جديدة أطلق عليها حرب الاسترداد وباركتها الكنيسة وشارك فيها ملوك الاسـبان والبرتغال ، وصار الساحل الشمالى للقارة الافريقية مسرحا لعمليات حربية بين المسلمين القادمين من بـلاد الانـدلس وبين المسيحيين الذين تعقبوا هؤلاء المسلمين فى بلاد المغرب العربى • وشهدت سواحل أفريقيا الشمالية ذلك الجهـاد البحرى الذى تزعمه الاخـوان عروج وخير الدين بربا روسا (أى ذو اللحية الحمراء) ، واتخذ هـذان المجاهدان من مدينة الجزائر مقرا لهما ، وبسطا نفوذهما على السـاحل الافريقى الشـمالى ، بل وساعدا حكام الدويلات الاسلامية هناك ضد المخاطر والهجمات الصليبية الاسبانية والبرتغالية • ولما سقط عـروج أثناء مقاومة التوسع الاسبانى تولى القيادة من بعده أخوه خير الدين ، ذلك المغامر الشجاع الذى واصل الجهاد ، ووسع من نفوذ المسلمين لكنه عندما شعر بعجزه عن مقاومة التوسع الاوربى استنجد بالدولة العثمانية الفتية ، فقدمت له المساعدات ، ووجهت اليه الحمـلات التى أعانته على بسط النفوذ العثمانى فى ذلك الجزء من أفريقيا • وأصبحت الدولة العثمانية وجها لوجه مع القوى المسيحية بعد أن بسطت نفوذها على الجزائر فى عام ١٥١٨ ، ثم ليبيا (طرابلس) فى عام ١٥٥١ ، وأخيرا تونس فى عام ١٥٧٤ .

ومنذ القرن السادس عشر دخلت الجزائر تحت السيطرة العثمانية ، واستمرت على هـذا المنوال طوال قرون ثلاث حتى سقطت فى أيدى الاستعمار الفرنسى فى عام ١٨٣٠ • وطوال هذه الفترة التى عاشت فيها الجزائر فى ظل الحكم العثمانى كانت هذه الولاية شبه مستقلة ، وكان لها علمها وجيشها وعلاقاتها الدبلوماسية مع الدول الاخرى لكنها كانت تعترف بالباب العالى ، والخلافة الاسـلامية ، وكانت ترسـل الهدايا

للسلطان العثمانى فى استانبول كل ثلاث سنوات ، ومع ذلك لم يكن العلم العثمانى محل تقدير الشعب الجزائرى (١) .

وكان للجزائر أسطول بحرى قوى سيطر على كل غرب البحر المتوسط على شواطىء المحيط الاطلسى الافريقية . وقد فرضت هذه السلطة البحرية الجزائرية نفسها على الدول الاوربية بما فى تلك الولايات المتحدة الامريكية ، واستمرت تمارس هذا النشاط البحرى ، وذلك التفوق العسكرى سنين عديدة . وكانت القوى الكبرى تخطب ود الشعب الجزائرى الذى تفاخر بكبرياء بأن قوته البحرية لا تفوقها الا قوة بريطانيا العظمى فى ذلك الوقت من القرن التاسع عشر (٢) .

وكانت الدول الاوربية الصغرى مثل ايطاليا وهولندا تدفع الجزية السنوية للجزائر . كما كانت تقدم مختلف الهدايا حتى تحظى بصداقة دائمة مع الجزائريين لكى تحافظ على تجارتها . وكانت الدول الكبرى تدفع الجزية أحيانا ، وفى أحيان اخرى كانت تدخل فى حروب مع الجزائر حتى لا تدفع هذه الجزية . وكانت الجزائر فى معظم هذه الحروب تخرج منتصرة على هذه القوى الاوربية .

وكان موقع الجزائر الممتاز والاستراتيجى على ساحل البحر المتوسط قد جعل هذه المنطقة محط أنظار الدول الاوربية ، وخصوصا فرنسا بعيد قيام الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ وحاجة الشعب الفرنسى الى القمح الجزائرى ، فراح زعماء الثورة يقيمون علاقات الود والصداقة مع شعب الجزائر حتى يضمنوا الحصول على المواد الغذائية من هذا القطر الجزائرى ، ومن حسن حظ الفرنسيين أن حاكم الجزائر الملقب بالداى قد أقام علاقات حسنة مع الفرنسيين ، واستمرت علاقات الود هذه حتى أوائل القرن التاسع عشر .

لكن بحلول القرن التاسع عشر تغيرت الاحوال ، وتبدلت الامور ، فلم تعمر علاقات الود والصفا بين الجزائر وفرنسا لاسباب تعددت ، صراعات دولية استجدت خاصة وأن فرنسا تسعى لبناء امبراطورية

---

(١) Shaler, William : Sketches of Algiers, Boston, 1826, P. 18.

(٢) أبو القاسم سعد الله ، ابحاث وآراء فى تاريخ الجزائر ، القسم الاول ، الجزائر ١٩٨١ ، ص٢٤٨ .

فرنسية خارج أراضيها ، ووضحت الجزائر كامتداد طبيعى لهذه الامبراطورية ، فساءت العلاقات بين حكام البلدين عندما طلب الداى فى الجزائر من الحكومة الفرنسية سداد مبلغ مليون فرنك كان قد أقرضها لهم لشراء قمح من ولايته ، وجاء رد نابليون برفض تسديد هذا المبلغ ، بل وهدد بقطع العلاقات مع الجزائر ، وضربها بالمدافع اذا أصر الداى على طلب سداد هذا القرض •

تصادفت هذه لتطورات مع ازدياد النشاط البحرى الاسلامى فى أوائل القرن التاسع عشر ، وجهات المسلمين ضد سفن الاوربيين • وخشيت بريطانيا على مصالحها وعلى طرق مواصلاتها فى الشرق ، وتجاوبت معها بقية الدول الاوربية ، وانعقد مؤتمر فيينا لبحث أوضاع القارة الاوربية بعد هزيمة نابليون ١٨١٥ وكان موضوع الجهاد البحرى الاسلامى من المسائل الهامة التى شغلت بال أوربا ، وطالب فرسان القديس يوحنا فى مالطة باعادة الجزائر اليهم حتى يتخذوها كرأس حربة لضرب المقاومة الاسلامية ولاجهاض أية حركة ضد سفن المسيحيين وللقضاء على ما أسموه بالقرصنة البحرية •

وقدم الاميرال سيدى سميث (Sydney Smith,) قائد الاسطول الانجليزى فى البحر المتوسط مذكرة الى مؤتمر فيينا ، طالب فيها بوضع حد للقرصنة البحرية عن طريق القيام بعمل أوربى جماعى لتحطيم حكومات شمال أفريقيا ، واقامة حكومات أخرى محلها ، وتدمير سفن المسلمين ، والقضاء على كل أعمال القرصنة ، كما اقترح بأن يتولى قيادة هذه القوة الاوربية الجماعية ولقد كون هذا القائد الانجليزى بالفعل جمعية أطلق عليها اسم جمعية محاربة القرصنة ، كما أسس جمعية أخرى تحت اسم جمعية محاربى الرقيق الابيض فى أفريقيا ، وبذل سيدنى سميث جهدا كبيرا من أجل أن يستصدر المؤتمر قرارا لتحقيق أهدافه لكن حكومته بالذات فضلت السياسة التقليدية التى تبقى على حكومات شمال أفريقيا بشكلها الحالى ، وحتى لا تضعف هذه الحكومات فتصير فريسة أمام الفرنسيين ، واكتفى المؤتمر فى النهاية بوضع بعض المبادىء العامة التى تحرم الرق والقرصنة •

وبعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، بدأ تدخل الدول الاوربية فى شئون منطقة شمال أفريقيا حيث أنه فى نفس العام أرسلت الولايات المتحدة

الامريكية أسـطولا لكى يجبر داى الجزائر على وقف المطالبة بالجزية السنوية ، ووقف عمليات تفتيش السفن الامريكية وغيرها ، كما قام هذا الاسطول الامريكى بتحطيم سفن الريس حميدو أحـد زعماء الجهاد الاسلامى ، وأبرمت الولايات المتحدة معاهدة مع حاكم الجزائر ، جددت بعد ذلك عدة مرات ، وعلى أثرها ساد السـلام بين امريكيين وحـكام الجزائر حتى عام ١٨٣٠ (١) .

وشاركت بريطانيا فى عملية الحصار البحرى لسواحل الجزائر بقصد ارهاب المسلمين واجبارهم على فك أسر المسـيحيين ، واحترام قوانين الملاحة . وشاركت أساطيل دول أوربية أخرى مثل هولندا فى المضمار من أجل القضاء على الجهاد البحرى الاسلامى .

وازاء هذا العدوان السافر على سيادة والى الجزائر ، جـاء رده بالقبض على عدد من الاوربيين ، كما طرد القنصـل البريطانى من مدينة الجزائر ، فقامت بريطانيا بارسال أسطولها الذى دخل ميناء الجزائر ، وفرض شروطا قاسية على الداى ، منها ضرورة الاعتراف بانهاء الرق ، وعدم أسر المسحيين واسترقاقهم ، بل ورد الاسرى من الاوربيين ورفض الداى هذه الشروط القاسية ، فأطلقت المدفعية البريطانية النار على القطع البحرية الاسـلامية ، وألقى البريطانيون حوالى ٢٤٫٠٠٠ قذيفة على الاسطول الجزائرى ، واضطر الداى أمام هذا الهجوم الى اطلاق سراح الاسرى الاوربيين ، وتضايق الشعب الجزائرى المسلم من جراء هـذا التصرف ومن استسلام الداى لاوامر البريطانيين ، فقام الناس بقتله ، واختاروا الداى حسين بدلا منه .

ولم تتوقف محاولات الدول الاوربية للقضـاء على الجهاد البحرى الاسلامى ، ولم يعقد مؤتمر أوربى فى ذلك الوقت الا ويكون موضوع الجهاد الاسلامى من أهم البنود التى تناقش ففى مؤتمر لندن عام ١٨١٦ عرضت قضية القرصنة ، والجهاد الاسلامى البحرى ، لكن رفض المندوب الفرنسى القرارات التى تخول لبريطانيا الحق فى تقوية نفوذها فى البحر المتوسط (٢) .

---

(١) انظر جلال يحيى ، السياسة الفرنسية فى الجزائر ، ١٨٣٠ — ١٩٦٠ (القاهرة ١٩٥٩) ، ص ٥٤ .

(٢) جلال يحيى ، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

وفى مؤتمر اكس لاشبيل لعام ١٨٨١ تمت مناقشة مسألة القرصنة البحرية وأظهرت روسيا استعدادها للاشتراك فى القوة الاوربية لمكافحة القرصنة ، وكان هذا الاستعداد الروسى من العوامل التى زادت من مخاوف انجلترا وفرنسا بسبب خروج الروس الى البحر المتوسط لكن الدولتين اتخذتا موقفا موحدا تجاه الخطر الروسى ، واقترحت فرنسا أن تتوسط الدولة العثمانية لدى حاكم الجزائر للقضاء على القرصنة البحرية • كما طالبت الدول الاوربية من الداى أن يقدم وثيقة رسمية يتعهد فيها بالغاء الرق ، والتخلى عن حقه فى تفتيش السفن الاوربية ، لكن الداى أصر على حقه فى القيام بعملية زيارة السفن حفاظا على سلامة دولته ، ورغم تهديد انجلترا وفرنسا للمسلمين ولحكومة الداى فان هذه المظاهرات البحرية لم تحقق الفائدة المرجوة •

وفى عام ١٢٨٤ ضرب الاسطول البريطانى مدينة الجزائر بحجة أن الداى سجن بعض الاهالى الذين يخدمون القنصل البريطانى ، وخشيت فرنسا من سقوط الجزائر تحت قبضة بريطانيا فراحت تدعم نفوذها هناك ، وأخذت تتحين الفرص لتحقيق أغراضها الاستعمارية فى هذه الولاية الاسلامية •

وسوف ندرس تطورات الاحداث ، وعلاقات فرنسا بالجزائر ، والظروف التى أدت الى احتلال فرنسا للجزائر ، والمقاومة الجزائرية لهذا الاستعمار الفرنسى ودور الامير عبد القادر الجزائرى وأتباعه من الصوفيين فى مقاومة هذا التوسع الفرنسى حتى استسلام الامير وأتباعه فى عام ١٨٤٧ •

تطور العلاقات الفرنسية الجزائرية :

تعرضت فرنسا أثناء الثورة لازمة اقتصادية حادة لانها حاربت كل دول القارة الاوربية ، وأنفقت الكثير من مواردها فى هـذه الحرب ، ولم تجد العوض الا فى صـديقها داى الجزائر الذى أقرض الفرنسيين كميات كبيرة من الحبوب واللحوم والجلود كما سمح لهم بالتموين من موانى الجزائر ، ولكن فى عام ١٧٩٣ حدث نوع من الفتور فى العلاقات بين الدولتين ، فأوقف الداى التعامل مع الوكالة الفرنسية التى صارت عاجزة عن استيراد الحبوب من الجزائر (١) .

وفى عام ١٨٠١ وقع نابليون معاهدة مع حـاكم الجزائر نصت على ضمان سداد الديون الجزائرية ، لكن حدث تصادم من جديد بين السفن الفرنسية والجزائرية ، وبدأ نابليون يستخدم اسـلوب التهديد للداى ، وأخذ يجمع معلومات من السائحين عن أفريقيا والجزائر ، وقد اختلفت الاراء حـول تفكير نابليون فى حملة لفتح الجزائر ، الا أن جـوليان يستبعد هـذه الفكرة ويرى أن نابليون كان مهتمـا بأوربا ، وكانت تجربته الفاشلة فى مصر ماثلة أمام عينية . وهذا ما جعل الاجراءات التى اتخذها ضد الداى مجرد تهديد ووعيد ، وليست احتلال أو اسـتقرار بالجزائر (٢) .

وفى عام ١٨١٥ بدأت صـفحة جديدة فى علاقات الدولتين ، وعينت فرنسا قنصـلا جديدا لها بالجزائر هـو ديفال الذى أوكلت اليه مهمة تسوية الديون مع الداى ، ولما كانت الحكومة لا ترغب فى تبادل مكاتبات مع الداى فى هذا الخصوص ، فقد كلفت القنصل ديفال بشرح الموقف ، وحاول ديفال فعلا أن يشرح وجهة نظر حكومته لكن الداى رفض هذا التفسير . وفى أثناء اللقاء الذى تم بين القنصل والداى فى يوم ٢٩ من

---

(١) Hardi, G. : Histoire des Colonies Francaise, Paris 1929, P. 150.

(٢) Julien, Ch. A. : Histoire de l'Algerie Contemporaine, Paris, 1964, P. 22.

ابريل ١٨٢٧ بمناسبة عيد الاضحى حدثت مشادة انتهت بأن أشاح الداى فى وجه القنصل بكشاشة الذباب ، فخرج ديفال غاضبا ، وكتب تقريرا الى حكومته يشرح الاهانة التى أصابت شرف فرنسا .

وفى ١٦ يونية ١٨٢٧ أرسلت فرنسا أربع سفن حربية بقيادة الكابتن كوللیه (Collet) يحمل انذارا للداى ، ويطلب ترضية كاملة عما لحق بشرف فرنسا من اهانة ويعلق الزعيم النمساوى مترنخ (Meternich) على ذلك بأنه ليس من المعقول أن تحرك فرنسا هذا الجيش الضخم ، وأن تصرف من خزانتها هذا المبلغ الضخم (١٥٠ مليون فرنك) من أجل ضربة مروحة كما يقال (١) .

رفض الداى مطالب فرنسا الغريبة والتى تتمثل فى دفع تعويضات لفرنسا ، واعلان الداى أن حكومة فرنسا قد سددت كل التزاماتها المالية للداى . وحاصرت السفن الفرنسية سواحل الجزائر لمدة ثلاث سنوات دون أن يحقق الحصـــار أية نتائج ايجـابية (من ١٦ يونية ١٨٢٧ الى ١٤ يونية ١٨٣٠) ولكن كلف هذا الحصار فرنسا مبلغ سبعة ملايين فرنك فى كل عام علاوة على الخسائر التى أصابت التجارة الفرنسية ، وفشلت كافة المحاولات الفرنسية لاجبار الداى على قبول الشروط الفرنسية ، وأخيرا قررت الحكومة الفرنسية تجهيز حملة الجزائر ، وصدرت الاوامر بتكوين ثلاثة لجان لاعداد الحملة من أجل الانتقام للاهانة التى لحقت بشرف فرنسا ووصفتها بأنها حملة مسيحية على بلاد البرابرة المســلمين وأنها فى صالح كل العالم المســيحى للقضــاء على القرصنة ، وتأمين المواصلات البحرية والتجارة فى البحر المتوسط .

والسؤال الآن : ما هى الأسباب الحقيقية لتلك الحملة على الجزائر لقد كانت فرنسا قبل اعلان الحملة تعانى من أزمات داخلية ، وكانت على وشك ثورة جديدة فى يونية ١٨٣٠ . وبالفعل قامت هذه الثورة ، وأسقطت شارل العاشر وجاءت بلويس فيليب الذى اتبع نفس السياسة السابقة ، وكانت الحكومة الجديدة ترغب فى أن يشــعر الشعب بأن الدولة تدافع عن شرف الامة الفرنسية الذى أهانه الجزائريون ــ كذلك خشى شارل العاشر من قوة الجيش وسعيه نحو اسقاط النظام فدبر عملية

---

(١) Ibid, P. 38.

ارسال الجيش الى طولون استعدادا للمعركة لمجيدة على الساحل الاخر من البحر المتوسط • ولقد لخصت صحيفة لومنينتور (Le Moniteur,) أسباب الحملة فيما يلى :

أولا : رفض الداى السماح بامتيازات لفرنسا وهدم كل الحصون والمؤسسات وتوابعها التى كانت لفرنسا .•

ثانيا : حصلت فرنسا على امتياز صيد المرجان على الساحل الجزائرى مقابل دفع ٦٠ ألف فرنك سنويا ، ولكن الداى طلب بعد عامين أى فى عام ١٨١٩ من الفرنسيين دفع ٢٠٠ ألف فرنك ، هذا بالاضافة الى سماح الداى لكل الدول الاوربية بصيد المرجان •

ثالثا : رفض الداى اعطاء اجابة مقنعة عن حجز سفينة فرنسية فى عنابة •

رابعا : اعلان الداى لكل من فرنسا وانجلترا فى عام ١٨١٨ بأنه سيواصل نظام الاسترقاق ضد الدول الاوربية اذا لم توقع معاهدات معه•

حاول الفرنسيون اضعاف معنويات سكان الجزائر ، فقاموا بطباعة منشور باللغة العربية ، ارسلوا منه ٤٠٠ نسخة الى قنصلهم فى تونس لتوزيعها على أهل الجزائر ، وفيه يدعى الفرنسيون أنهم قادمون لمحاربة الاتراك ، وانهم جاءوا لحماية الاهالى ، والاحترام دين الاهالى وعاواتهم، وطلبوا من الاهالى التعاون معهم ضد الاتراك (١) .•

وتحركت الحملة من ميناء طولون فى الثلاثين من مايو عام ١٨٣٠ ، ووصلت الى الجزائر ، ونزلت فى سيدى فرج التى تبعد مسافة خمسة وعشرين كيلو مترا غربى مدينة الجزائر • واستولى الفرنسيون على المعسكر الجزائرى ، فى أسطا ، وانفتح الطريق الى مدينة الجزائر ؛ وأملى القائد الفرنسى شروطا قاسية على الداى وهى تقضى بما يلى :

---

(١) انظر نص البيان فى ابو القاسم سعد الله : ابحاث وآراء فى تاريخ الجزائر ، ص • ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ .

وانظر ــ الغزو الفرنسى للجزائر فى وثبقة امريكية معاصرة ، مقال الدكتور منصور احمد بوخمسين ، حوليات كلية الآداب ــ جامعة الكويت ــ الحولية التاسعة الكويت (١٩٨٨) .

أولا : تسليم حصن القصبة وجميع حصون مدينة الجزائر •

ثانيا : يضمن القائد الفرنسى حرية الداى وممتلكاته الشخصية •

ثالثا : يترك للداى حرية الاقامة فى المكان الذى يريده •

رابعا : يتعهد القائد العام لكل الجنود الانكشاريين بنفس المعاملة ونفس الحماية •

خامسا : ضمان حرية الشعب الجزائرى فى أداء شعائره الدينية •

وكان الداى حسين قد صمم على المقاومة وأخذ يستعد لملاقاة الفرنسيين ، وجمع حوالى ستين ألف مقاتل لكن الداى ارتكب بعض الاخطاء منها تعيين صهره ابراهيم أغا رئيسا للقوات التى ستواجه الفرنسيين وكان ابراهيم قليل الخبرة ، وليست لديه الكفاءة التى تؤهله الى مثل هذا العمل ، كما أن الداى أبقى بعض المتطوعين من القبائل بعيدا عن المدينة توفيرا للنفقات ، كذلك رفض ملاقاة الفرنسيين عند النزول برا وانتظرهم فى الحصون التى تحمى مدينة الجزائر لكل الفرنسيين ضربوا عليه حصارا محكما ، وسقط الداى وقبل الشروط الفرنسية التى أملاها عليه الجنرال الفرنسى برمون وذلك فى الرابع من يولية ١٨٣٠ ، وغنم الفرنسيون ما قيمته خمسة وخمسين مليونا من الفرنكات وهذا يزيد عن نفقات الحملة بما يجاوز أثنى عشر مليونا من الفرنكات (١) •

واضطر الداى الى مغادرة الجزائر هو وأسرته الى نابلى ، ولم تكن فرنسا قد قررت الخطة التى ستسير عليها فى الجزائر لكنهم قاموا بنزع سلاح الانكشارية ، كما أرسل برمون حملة للاستيلاء على المرسى الكبير ووهران وعنابة ، ولقى مقاومة عنيفة من المواطنين هناك وخصوصا فى مناطق عرب الجزائر وشرقها •

وبعد رحيل الداى حسين وقع عبء المقاومة على الشعب الجزائرى نفسه ، وتمثل هذا النضال وذلك الكفاح فى شخصية الامير عبد القادر الجزائرى • فلما ساءت أحوال الجزائر ، واضطرب الامن بين الناس

---

(١) صلاح العقاد ، المغرب العربى ، (القاهرة ، ١٩٥٨) ، ص ١٠٣ .

وتوقف دولاب العمل ، وتعطلت الزراعة وعمت الفوضى ، اجتمع العلماء والاعيان للنظر فى من اجتمعت فيه شروط الامارة لكى يبايعوه ، ولم يجدوا الا الرجل الجليل الصالح الشيخ محى الدين ، وألحوا عليه لقبول البيعة بامارة ، فأبى قبولها لكنه قبل القيام بأمر الجهاد ، فرضى القوم بذلك .

المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسى :

وبعد قبول الشيخ أمر الجهاد بداية المقاومة الجزائرية ، ولذا فان هذا الرجل أصبح بمثابة الاب الروحى للثورة الجزائرية الاولى .

وكانت أسرة الامير عبد القادر قد استقرت فى غرب الجزائر ، وهى تنتسب الى الاصل العربى والى النسب النبوى الكريم عن طريق ادريس بن عبد الله الذى أسس مدينة فاس فى مراكش ، وكان الشيخ محى الدين قد استقر فى أعوام ١٧٧٦ حتى عام ١٨٣٤ فى القيطنة (al Qaytana) حيث بنى زاوية وأخذ ينشر مبادىء الطريقة القادرية والتى ستلعب دورا كبيرا فى مقاومة التوسع الفرنسى .

وفى العشرينات من القرن التاسع عشر بدأت السلطات الجزائرية تشك فى نوايا الشيخ محى الدين ، وفكرت فى أنه ينوى القيام بعمل عسكرى مثل التيجانية فى الجنوب ولهذا طلب الداى من الشيخ محى الدين التوجه مع عائلته الى وهران ، وهناك عاش الشيخ مع أسرته تحت الرقابة الشديدة فترة من الزمان . ولما أحس الداى أنه لا يفكر فى أى غزو عسكرى ، أطلق سراحه فقام الشيخ محى الدين بتسليم مسئولية الزاوية الى ابنه الاكبر محمد سعيد ، وذهب الشيخ الى مكة ومعه ابنه عبد القادر وذلك فى عام ١٨٢٥ عن طريق تونس ثم الى الاسكندرية بالسفينة (١) .

وزار الشيخ محى الدين وابنه عبد القادر مدينة دمشق ، وتوقفا فترة لدراسة كتاب الشيخ الكسبرى فى الجامع الاموى ، كما التقيا بالشيخ النقشبندى ضياء الدين خالد الشهر زورى ، ومكث الاثنان معه

---

(١) محمد بن عبد القادر الجزائرى ، تحفة الزائر فى تاريخ الجزائر والامير عبد القادر ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٩٤١ .

فترة من الزمان ، ويقال أن عبد القادر أخذ عنه ورد الطريقة النقشبندية . وفى بغداد أعطى الشيخ محمد الجيلانى شيخ الطريقة القادرية ، وأحد أحفاد مؤسسها بردة القادرية الى الشيخ محيى الدين وابنه عبد القادر وفى عام ١٨٢٨ عاد الشـــيخ محى الدين وابنه عبد القادر من الشرق ، وتوقفا فى مدينة الجزائر لزيارة الداى الذى قابلهم بكل حفاوة واحترام ، وكان الشيخ حريصا على ابقاء علاقات الود مع الخلافة العثمانية (١) .

وبعد وصولهما بعامين الى القيطنة تغير الوضع السياسى الجزائرى بشكل أساسى حيث سقط الحكم العثمانى ، واحتل الفرنســيون مدينة الجزائر وانتهت آمال الشيخ عبد القادر وابنه فى العيش فى سلام ، ولذا التف الناس حول الشيخ وابنه . ومن هنا بدأ لتفكير فى الجهاد ضــد المسيحيين مثلما حدث فى بلاد المغرب بشكل عام فى القرن السادس عشر ، وبدأ البحث عن الشخصية التى ستعلب دور بطل الاسلام أمام هذا الغزو الصليبى ، وكان هناك شبه اجماع حول اختيار الشيخ محى الدين رئيس الطريقة القادرية . وكان هــذا التأييد مؤكدا من كل فئات الشعب فى غرب الجزائر . وفى البداية رفض الشيخ محى الدين تولى القيادة لانه قارب على الستين من عمره ، ولم يكن رغب القيام بالدور الذى طلبه الناس منه ، ووافق فى عام ١٨٣٢ على توجيه أمور الجهاد دون الامارة .

وفى مايو ١٨٣٢ دارت معركتان بجوار قلعة وهران مــع القوات الفرنسية وفى كل من المعركتين ظهرت شجاعة الامير عبد القادر ومواهبه القتالية ، فكان ذلك نقطة تحول كبرى فى حياة الامير خصوصا بعد أن طعن فرسه ثمان طعنان لكنه ظل واقفا ثابتا حتى جاءه فرس آخر امتطاه وواصل القتال .

أقبل العلماء على الشــيخ محى الدين ، وطلبوا قبول البيعة على الامارة لنفسه اذا رغب أو لولده عبد القادر الذى صار محط الانظار . وفكر الشيخ محى الدين فى هذا الامر ثم أشار الى ولده عبد القادر ، وطلب منه الترشيح للامارة ، فقبلها الامير عبد القادر الذى جلس أمام والده وصافح الوالد ابنه قائلا : « اننى انا والدك أبايعك على السمع

---

(١) Martin, B. G. : Moselm Brotherhoods in 19th Century Africa, London 1976, P. 50.

والطاعة والموت والحياة ، وأدعو الله أن يجعل خلاص الجزائر على يديك يا ناصر الدين » (١) •

وكان رؤساء القبائل عندما التقوا فى وهران لاختيار أحدهم لتنظيم وقيادة الحرب ضد الفرنسيين مترددين فى اختيار الامير عبد القادر ابن الشيخ محى الدين ولكن عندما حان موعد الاختيار أعلن أحد مرابطيهم ويدعى سيدى العراش بأنه رأى الشيخ عبد القادر الجيلانى فى المنام واقفا بجوار العرش الخالى ، ولما سأله العراش عمن سيشغل هذا العرش ، أعلن الشيخ عبد القادر الجيلانى أنه الامير عبد القادر ابن الشيخ محى الدين • وفى الحال ركب الشيخ العراش مع ثلاث مائة من الفرسان ، وذهب الى منزل الشيخ محى الدين ، حيث وجد أن الاخير قد شاهد رؤيا مشابهة وأن ابنه سيكون سلطانا على المغرب •• وفى صباح اليوم التالى تم اختيار الامير عبد القادر للسلطنة ، واعتقد العرب فى الجزائر أن الشيخ عبد القادر الجيلانى قد ظهر للامير بانتظام ، وعلى هذا فان نجاح الامير عبد القادر ضد الفرنسيين جعله حاميا للطريقة القادرية (٢) •

وحصل الامير على تأييد وتعضيد كل القبائل الكبرى المجاورة لمدينة العسكر ووادى جاريس (Gharis) ، وجاءت الوفود تبايعه وتعلن الولاء له ، وتقبلها الامير تحت شجرة مثلما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، قبل أن يقدم على غزوة الحديبية ضد كفار مكة ، ومثل زعماء الجهاد فى غرب أفريقيا أعلن عبد القادر أنه سيسير على نهج الرسول الكريم فى كل الامور التى يتعرض لها •

وبدأ الامير خطوات سريعة نحو بناء جماعة العلماء ، وصارت دولته تشبه حالة الدولة فى عهد الخلفاء الراشدين ، وعين الامير عبد القادر وزيرا (رئيس وزراء) وسكرتيرا خاصا مع عدد من الاتباع كالحاجب، وناظر الخزينة الذى يشرف على الشئون المالية ، كما أنشأ الاوقاف ، وبدأ فى جمع الضرائب ، كما أنشأ أيضا منصب وزير الشئون الخارجية •

---

(١) الامير عبد القادر الجزائرى ، سلسلة ابطال العرب ، العدد ١٣ ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٥٣ .

(٢) Churchill, C. H. : The life of Abdul Kader, 1867, P. 11.

وقبل الحديث عن صراع الامير مع الفرنسيين نلقى نظرة سريعة على نظام الدولة الذى أسسه الامير وكيفية تمويل جيشـــه ، والنظام الذى اتبعه فى الداخل قبل أن يخوض معارك الصراع مع القوى الاجنبية فى الجزائر •

دولة الامير عبد القادر الجزائرى :

يعتبر الامير عبد القـــادر الجزائرى من الزعماء القلائل فى تاريخ العر ب الحديث الذين تصدوا بجرأة للاستعمار ، وهو من أبرز وجوه المقاومة الجزائرية وأكثرها وعيا وأصالة حيث عكس نضاله روح الامة الجزائرية والاسلامية ، وكان زعيما من طراز جديد لم تعرفه الجزائر من قبل ، فهو لم يكن وريث زعامة سياسية أو ادارية أو عسكرية أو اقطاعية ، بل كان فى البداية رجل زاوية يعيش حياة بســيطة ، وجاءت ظروف الجهاد والمقاومة لتجعل منه قائدا عسكريا ، وزعيما سياسيا حاول بناء أمة جزائرية قوية تتصدى للاستعمار الاوربى (١) •

وكان الامير عبد القادر يرى أن الجهاد فريضة الى يوم القيامة ، وأن على المسلم أن يجاهد أعداء الاسلام بكل ما أوتى من قوة ومال • وكان الامير متصوفا زاهدا فى الدنيا ومتاعها ، ولكن ظل الجهاد بالنســبة للامير عبد القادر واجبا مقدسا ، فلم يترك مناسبة الا وحث الناس فيها على الجهاد لانه كان أشد الناس تمسكا بدينه ، وأكثرهم تقيدا بمبادئه الى جانب جهوده المتواصلة والمخلصة لنشره بين مختلف طبقات الشعب الجزائرى • وعمل الامير بكل اخلاص وأمانة على تقوية التعبئة النفسية بين أفراد شعبه وجيشه ، واعتمد على الجهاد لتحقيق هذه الغاية حيث كان الجهاد أنسب الطرق لحماية امارته الناشئة أمام تحالف الاعــداء والصليبيين •

وعمل الامير على تحسين أوضاع المجتمع القبلى الواسع الانتشــار فى المقاطعة الغربية التى تعيش أساســا على عرف القبيلة وتقاليدها .• وسعى الى جمع القبائل ضــمن دولة حديثة ، وشرع فى اعادة النظر فى الانظمة والقوانين ، وكانت العصبية القبلية عاملا ســاعد على تقوية معنويات جيش الامارة ، ودعم الثقة المتبادلة بين الحاكم والقبائل أو بين القبائل فيما بينها •

---

(١) محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٣٢٧ .

ووجد الامير عبد القادر الجزائرى أنه من الضرورى الضرب على أيدى كل من المسلمين الجزائريين الذين لا يعترفون بسلطانه لانه يعرف أن القبائل مترددة وتحترم القوة أكثر من أى شىء آخر ، وحاول الابقاء على ولائها له ليس فقط عن طريق استمالة عواطفها الدينية بل أيضا بمحاولة استعراض القوة •

وأنشأ الامير مجلسا استشاريا من كبار العلماء ، يرأسه رئيس القضاة ، كما أنشأ الدواوين وحدد لكل منها اختصاصها ، كما ألغى الضرائب السابقة التى كان يفرضها العثمانيون ، وأحل محلها الضرائب المرتبطة بالشريعة الاسلامية مثلما فعل الشيخ عثمان بن فودى فى بلاد الهوسا (١) •

وأدرك الزعيم الجزائرى أن النضال لا يمكن أن يتحقق الا اذا تحققت الوحدة الجزائرية ، ولذا بدأ العمل على وحدة الشعب الجزائرى كشرط ضرورى لنجاح المقاومة ، وخلق وعيا جديدا فى حياة المجتمع الجزائرى ، يتمثل فى شعور الانتماء الى مجتمع يتجاوز حدود القبيلة ، أو اتحاد القبائل أو الاقليم ؛ ولم يعد الامير مؤسس سلالة شبيهة بسلالات العصور الوسطى ، بل صار أهم شىء عنده مقاومة الغزو الفرنسى ، واعتمد فى هذه المقاومة على العاطفة بأراضى الاجداد ، ولذا فعندما بدأ الفرنسيون الحرب مع الجزائريين أحسوا أنهم لا يحاربون رجلا طموحا ، بل يحاربون شعبا جديدا ، ودولة تبنى على أساس جديد تماما (٢) •

ويحاول بعض المؤرخين عقد مقارنة بين كفاح هذا الزعيم الجزائرى ، وبين كفاح زعماء المغرب كالمرابطين والموحدين الذين قاموا بجهادهم ، على أسس دينية • كمال يحاول البعض الاخر ربط حركته فى الجزائر بالدور الذى قام به محمد على فى مصر ، لكن مهما اختلفت الاراء وتعددت المقارنة بين كفاح هذا الزعيم وغيره من الزعماء المسلمين ، فانه يمكن القول أن كفاح الامير عبد القادر من نوع خاص يختلف فى طبيعته عن كل أنواع الكفاح فى شمال أفريقيا ، فلقد استطاع الامير عبد القادر

---

(١) Martin, B. G. : Op. cit,, P, 55,

(٢) Revue d'Histoire Moderne et contemporaine, 1967, P. 133.

Martin, B. G., : Op. Cit., P. 55,

اخراج الوطنية من المفهوم النظرى الى ميدان التطبيق وصارت الوطنية فى نظره تعنى القوى المحاربة ضد العدو لاجنبى ، ولذا فقد بذل كل جهوده من أجل توحيد القبائل المتنافرة ، وكون منها دولة حديثة (١) .

وآمن الامير بضرورة تطوير وطنه ، فأقام دعائم دولة حديثة عمادها سلم ادارى تصـــاعدى مسئول قاعدته الشيخ وقمته الخليفة الذى هو مسئول مباشرة أمام الامير نفسه ، وساند هـــذا النظام الادارى بنظام محكم يوفر التعليم والقضاء والمواصلات والتسليح والمخابرات .

اعتمد الامير عبد القادر على الجيش باعتباره الحصن المتين الذى يساعده فى الدفاع عن ديار المسلمين ضد هؤلاء الغزاة الاوربيين ، فقسم جيشه الى قسمين ، يضم القسم الاول الجنود النظاميين ، ويضم القسم الثانى الجنود المتطوعين الذين يتســـلحون بأى شىء يجدونه فى أرض المعركة ، كما ينفقون على تسليحهم من حسابهم الخاص ، وكان الجنود المتطوعون غالبا من الفرسان المسلحين بالبنادق والمسدسات وكان الامير يعتمد على هذه القوى غير النظامية أثناء الهجوم المفاجى على القوى الاوربية (٢) .

أما جيش الامير النظامى فكان ينقسم بدوره الى ثلاثة عناصر هى المشاه والمدفعية والفرسان ، وقد أطلق على هذه القوة النظامية الجيش المحمدى أو الجيش الاسلامى ، واتخذ هذا الجيش شعار « الصبر مفتاح الفرج » (٣) .

وكان الامير يحصل على السلاح من البريطانيين فى تونس والمغرب وفى عام ١٨٣٥ كتب الامير خطابا الى القنصل البريطانى فى تطوان يعلن فيه عن رغبته فى تحسين العلاقة مع البريطانيين ، وأنه على اســـتعداد للاتجار معهم فى أى ميناء مناسب فى غرب الجزائر مقابل الحصول على الاســـلحة (٤) .

---

(١) ابو القاسم سعد الله ، ابحاث وآراء فى تاريخ الجزائر ، جـ ١ ،

(٢) Martin, B. : Op. Cit., p. 55.

(٣) محمد عبد القادر ، تحفة الزائد ، ص ١٩٤ .

(٤) ابو القاسم سعد الله ، ابحاث وآراء فى تاريخ الجزائر ، ص ١٤٠ .

ولما فشـــل الامير فى الحصول على السلاح من البريطانيين الذين رفضوا أيضا الوساطة بينه وبين فرنسا ، أنشأ قاعدة صناعية لكى يزود جيشه بأهم المواد اللازمة للجيش ، كما أنشأ مصانع فى تلمسان ومسكرة وملیانة ، وبنى ترسانة حربية فى تاردمت لانتاج الصواريخ والاســلحة الاخرى ، كما أنشا مصانع لانتاج الطلقات البارودية فى أماكن أخرى . وكانت القوة البشرية الفنية التى تعمل فى مصــانع الاســلحة تأتى من أسرى الحرب الفرنسيين ويحدثنا صــاحب التحفة عن الفنيين الاســبان الذين ساعدوا فى انتاج العديد من الاشياء اللازمة للجنود مثل البارود والاسلحة وزى الجنود بالاضافة الى اصلاح المعدات الحربية (١) .

وقد اختلف حجم القوات التى كانت فى حوزة الامير من معركة الى أخرى حسب طبيعة كل معركة حربية مع الفرنسيين ، وســوف نناقش قوات الامير حسب كل معركة أثناء هذا الصراع مع هذه القوى الاجنبية.

ويمكن أن نميز فى كفاح الامــير عبد القادر مرحلتين لكل منهمــا سمات خاصة ، تبدأ المرحلة الاولى منذ انتخابه ومبايعته فى عام ١٨٣٢ وتستمر حتى عام ١٨٣٩ ، وقد بلغت قوة الامير ذروتها فى هذه الفترة ، وسيطر على ثلثى الجزائر ، أما المرحلة الثانية فتبدأ بعد نقض الفرنسيين لشروط الصلح فى عام ١٨٣٩ وتستمر حتى استسلامه فى عام ١٨٤٧ .

وبعد مبايعة الامير عبد القادر اتخذ من مدينة المعســكر مقرا له ، ونظم شئون امارته ، واســتولى على تلمسان ، وفرض حصــارا على الفرنسيين فى وهران ومستغانم ، وأصدر الامير عددا من البيانات الى الشــعب الجزائرى داعيا اياهم الى اليقظة والذود عن أوطانهم ضــد المعتدين ، ومن تلك البيانات ما جاء فى قوله « انكم أيها الجزائريون قد أصبحتم الان تحت رحمة رومى ، يقاضيكم رومى ، ويدير شــئونكم رومى ، ان الرومى قد انتهك مساجدكم ، وآخذ أحسن أراضــيكم ، وأعطاها الى بنى جنسه ، واشترى أعراض نسائكم . ان يوم يقظتكم قد حان ، هلموا جميعا عند سماع صوتى ، أيها المسلمون . ان الله قد وضع سيفه الملتهب فى يدى ، واتنا جميعا سنمضى الى الامام ، ونروى حقول وطننا بدماء الكفار » (٢) .

---

(١) محمد عبد القادر ، تحفة الزائر ، ص . ص ٣١٣ ــ ٣١٥ .
(٢) ابو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، الجزء الثانى ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧ ، ص ٤٢ .

الصراع بين الامير عبد القادر والفرنسيين :

بدأ الفرنسيون يراقبون ازدياد قوة الامير عبد القادر ولكنهم لم يستطيعوا التدخل المباشر ضـــده نظرا لعدم وجود القوة الكافية لديهم عقب احتلالهم الجزائر • وكانوا يخشـــون التوغـــل فى الداخـــل حتى لا يدخلوا فى مغامرة غـــير مأمونة العواقب •• وبعـــد أن تسلم الجنرال داميشال قيادة القوات الفرنسية فى مدينة وهران فى أواخر ابريل عـــام ١٨٣٣ ، أحس بالخطر المحيط بمدينته نتيجة زحف قبيلة الغربة فخرج بقواته وأوقع بها خسائر فادحة ، واحتل مستغانم ، وبدأ الاشتباك مع قوات الامير عبد القادر فى موقعة تامزوار • لكن الامير عبد القادر كان قد استولى على تلمسان ، وحاصر الفرنسيين فى وهران ومنع الاهالى من التعامل تجاريا معها • ولذا حاول الجنرال داميشال التفاوض معه لتخفيف هـــذه الازمة الاقتصادية ، وبدأت المفاوضـــات بين مندوب عبد القادر وممثلى الفرنسيين فى وهران •

معاهدة داميشال فى ٢٦ فبراير ١٨٣٤ :

بدأت المباحثات لعقد هذه المعاهدة بين الامير عبد القادر والفرنسيين بعد أن أحس الفرنسيون بخطورة محاصرة الامير لهم فى وهران ، فأرسل داميشال رسالة الى الامير عبد القادر يعرب فيها عن رغبته فى التفاوض مع الامـــير الذى كلف وزير خارجيته الميلـــود بن عـــراش لاجـــراء المفاوضات (١) •

وكانت مقترحات الجنرال الفرنسى داميشال تتلخص فى وقف الحرب بصـــورة نهائية بين الفرنســـيين والجزائريين ، واطلاق سراح الاسرى الفرنسيين واعادة الهاربين منهم فورا ، واعتبار التجـــارة حرة فى كافة المـــدن •

ووجد الامير فى هذه المقترحات ما يصلح لعقد معاهدة ، وفعلا أرسل الامير برأيه الذى وافق عليه داميشال ووقع الطرفان معاهدة ٢٦ فبراير ١٨٣٤ •

---

(١) صلاح العقاد ، المغرب العربى ، مرجع سابق ، ص ١١١ .

وقد نصت هذه المعاهدة على :

المادة الاولى : توقف الحرب بين الفرنسيين والعرب منذ توقيع المعاهدة ولن يدخر الامير عبد القادر والجنرال داميشال جهدا للحفاظ على الصداقة التى يجب أن تكون بين شعبين حكم عليهما القدر أن يعيشا تحت نفس السلطة .

المادة الثانية : احترام العادات والدين الاسلامى .

المادة الثالثة : اطلاق سراح لاسرى من لجانبين .

المادة الرابعة : حرية التجارة الكاملة والشاملة .

المادة الخامسة يعيد العرب الجنود الفارين من الفرنسيين ، كما يعيد الفرنسيون الجنود الفارين من العرب .

المادة السادسة : اذا رغب أى أوربى فى التنقل داحل البلاد ، فعليه أن يحصل على جواز سفر موقعا عليه من ممثلى الامير والقائد العام الفرنسى حتى يجد الحماية فى كل اقليم فى الجزائر .

وفى الوقت الذى كان الجنرال داميشال يتفاوض فيه مع الامير عبد القادر ، أرسل الى حكومته يفيد بأنه يجرى مفاوضات مع الجزائريين ، وفعلا أرسلت حكومة المارشال سولت Soult بتاريخ ١٩ فبراير ١٨٣٤ أربعة شروط كأساس للتفاوض ولكن عندما وصلت هذه الشروط كانت الاتفاقية قد نفذت بالفعل بكامل بنودها منذ ثلاثة أيام ، وكانت الشروط الفرنسية التى وصلت داميشال تتلخص فى اعتراف الامير بالسيادة الفرنسية مقابل اختياره بيا على وهران وثانيا دفع جزيه سنوية لفرنسا ، وثالثا عدم شراء الامير للاسلحة الا بموافقة باريس ، وآخيرا تسليم الاسرى الفرنسيين دون قيد أو شرط (١) .

واذا نظرنا الى هذه المعاهدة والظروف التى أحاطت بها لوجدنا أنها أول انتصار دبلوماسى للامير حيث اعترفت به كأمير للمؤمنين ، وهو اصطلاح لا يستخدمه الا الخلفاء ذو السلطة الروحية والسياسية ، كما

---

(١) اديب حرب ، التاريخ العسكرى والادارى للامير عبد القادر الجزائرى ١٨٠٨ – ١٨٤٧ ، الجزء الأول ، الجزائر ١٩٧٨ ، ص ١٢١ .

أنها أعطته فرصة من الوقت لكى ينظم امارته ، ويقوى جيشه ، ويضع نهاية لكل الثائرين والمنافسين المحليين • ولم تتوقف الامر عند هذا الحد بل ان الجنرال داميشال وقع معاهدة سرية مع الامير عبد القادر بتاريخ ٢٠ فبراير ١٨٣٥ وفى هذه المعاهدة السرية حقق الامير مكاسب عديدة مثل اعطاء الامير الحرية الكاملة فى شراء الاسلحة دون الرجوع الى حكومة فرنسا ، وعدم رفع التجار الفرنسيين احتجاجهم الى داميشال الذى صرح بأنه قد رخص للامير بالسيطرة على مرفأ أرزيو لتصدير الحبوب التى تنتجها أرضه • كما أن الامير عبد القادر صمم على عدم قبول المعاهدة ما لم تعترف فرنسا بحقه فى احتكار تجارة الحبوب ولقد ذهب داميشال الى أبعد من توقيع الاتفاق السرى حيث أرسل الى الامير عبد القادر بعض الاسلحة والذخائر التى ساعدته على التفوق على رجال القبائل والانتصار عليهم فى موقعة قرب تلمسان فى يوم ١٢ يولية ١٨٣٤ ، وكانت هذه المعركة سببا فى بسط الامير نفوذه على غرب الجزائر ، بل وصار هو السيد الفعلى والشرعى على كل غرب الجزائر عدا وهران ومستغانم وقلعة تلمسان (١) ، وباختصار أظهرت هذه المعاهدة مهارة ، الامير عبد القادر ودبلوماسيته وذكائه وسعة الاطلاع على أحوال العصر ، كما أنها أثبتت براعته وحنكته فى الدفاع عن مبادىء واضحة ، هدفها الاساسى اجبار العدو على الاعتراف به كممثل للشعب الجزائرى فى أحلك الظروف (٢) •

واعتبر الأمير عبد القادر هذا الاتفاق بمثابة هدنة مؤقتة لحين تنظيم قواته ، وبناء دولته ، ولذا فانه انتهز الفرصة وأخذ يوحد القبائل التى لم تخضع لنفوذه ، وتوسع فى غرب الجزائر ، وأخذ يتطلع الى الشرق ، والى المناطق المحيطة بمدينة الجزائر ذاتها •

وأدرك الفرنسيون أن المعاهدة التى وقعها داميشال كانت فى صالح الجزائريين ، وكان رد الفعل لهذه المعاهدة هو عزل الجنرال من منصبه وتعيين قائد جديد هو الجنرال تريزول حاكما على وهران ، كما أرسلت الحكومة الفرنسية لجنة لدراسة أوضاع الجزائر ، ووضع الحلول لها ، وتشكلت هذه اللجنة من ثمانية أعضاء برئاسة الجنرال بونه

---

(١) جلال يحيى ، السياسة الفرنسية فى الجزائر ، ص ١١٨ .
(٢) أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء فى تاريخ الجزائر ، ص ١٣٠ .

وزارت اللجنة مدن الجزائر عدا مستغانم ، وعقدت أربع عشرة جلسة عمل ، واقترحت خلالها بعض الأمور ومنها عدم احتلال الجزائر بالقوة ، بل طالبت باجراء مفاوضات مع بعض الزعماء المحليين والاحتفاظ بمدينة الجزائر العاصمة بشكل دائم •

وبناء عليه فقد أصدرت وزارة الكونت جيرارا Girara أمرا فى ٢٢ يولية ٨٣٤، بالاحتفاظ بالجزائر ، واختارت الجنرال دروا دارلون Darlon حاكما عاما للجزائر •

وحاول الحاكم العام اقناع ممثليه فى المقاطعة الغربية بالتوصل الى نوع من التفاهم مع الأمير ، لكن تريزول عارض الحاكم العام واعترض على هذا الموقف السلمى تجاه الأمير عبد القادر ، كما كان يرفض الامتيازات الممنوحة للأمير ، وصرح بأن معاهدة داميشال قد زادت من قوة الأمير عبد القادر ، ورفعت من شأنه بين القبائل وكان تريزول مقتنعا بأن القضاء على الأمير عبد القادر أمر محتم ، ولابد من التصدى له وارغامه على الحرب فى المكان الذى تختاره القوات الفرنسية •

ورغم اختلاف وجهات النظر بين الحاكم العام داريون وبين تريزول الا أن الحاكم العام اقتنع فى النهاية بوجهة نظر تريزول وبأن الامير يسعى لتحقيق مصالحة ، وتقوية جيشه ، وتوسيع نفوذه وحدود امارته •

وزاد الامر سوء ما أقدم عليه تريزول من مخالفة للحاكم العام واتصاله برؤساء قبليتى الدوائر والزمالة ، وتوقيع معاهدة التينة معهم فى ١٦ من يونية عام ١٨٣٥ ولقد نصت هذه المعاهدة مع هذه القبائل على اعتراف القبائل بسلطة ملك فرنسا مع التعهد بالخضوع للزعماء المسلمين الذين يعينهم الحاكم العام ، ودفع الضريبة السنوية التى كان تعطيها بايات المنطقة ، وأن تحصر تجارة الأسلحة مع السلطات الفرنسية ، واختيار كل قبيلة رئيسا يتخذ من وهران مقرا له ولعائلته •

ومن الواضح أن هذه المعاهدة قد نصت على اعتراف قبائل الدوائر والزمالة بالسلطات الفرنسية ، ودفع ضرائب لها • وقد ساعدت هذه المعاهدة القائد الفرنسى تريزول على اتخاذ مناطق هذه القبائل ركيزة للهجوم على الامير عبد القادر ، بالاضافة الى احتكار فرنسا لتجارة

الاسلحة مع هذه القبائل ، كما التزمت هذه القبائل بتقديم الدعم العسكرى لمؤازرة الجيش الفرنسى أثناء الهجوم على الامير عبد القادر ، ومن هنا تظهر خطورة هذه المعاهدة على الامير ودولته (١) .

ومن الطبيعى أن يعارض الامير هذه المعاهدة لان تصرفات تريزول تتنافى مع ما التزمت به الحكومة الفرنسية فى معاهدة داميشال ، واعتبر الامير معاهدة التينة نقضا لمعاهدة ٢٦ فبراير ١٨٣٤ ، بل واعتداء على صلاحياته ، وعلى القبائل التابعة له . وبدأ الامير سلسلة من المراسلات مع الحاكم العام الفرنسى ، وتريزول ، وأكد الامير للحاكم العام أنه لن يتوانى فى الدخول فى حرب مع الفرنسيين اذا لم يتراجع ممثله فى وهران عن اجراءاته . كما رفض الامير الاعترف بمعاهدة التينة لانها انتهاك صريح لبنود معاهدة داميشال (٢) . وبدأت الامور تتأزم بين الطرفين . وأخذ كل طرف يستعد لجولة جديدة من القتال .

وحاول القائد العام دارلون ارسال المقدم لأمور سيبار فى ١٨ يونية ١٨٣٥ الى تريزول لاثنائه عن القتال ، ولكن قبل أن يصل هذا المبعوث الفرنسى ، كان القتال قد بدأ بالفعـــل ، حيث ترك تريزول وهران الى ميسيغرين ثم الى معسكر ، وهاجم قبيلة بنى هاشم لاسر بعض المقاتلين وجمع المحصولات .

تقدم الأمير فى ٢٠ يونيه لمواجهة القوات الفرنسية ، واستطاعت احدى فرق الامير أن تنفذ كمينا لمجموعة فرنسية فى سهل تليلات ، وأعقب ذلك الهجوم على قافلة عسكرية فرنسية كانت فى طريقها الى نهر وهران ، عبر سهل سيراط (٣) وكذا الامير قوة ثانية من ثلاثة آلاف فارس وحوالى ١٥٠٠ من المشاه حول خيام قبيلة بنى هاشم عند نهر السيج ، وفى نفس الوقت تقدمت قوات تريزول وعسكرت فى سهل تليلات بحوالى مسافة تبعد ٢٨ كيلو مترا جنوبى شرق ومدينة وهران . وكان هذا الجيش الفرنسى يضم كتيبة من الفرقة ٦٦ ، وكتيبة من المشاه الافريقية ، والكتيبة الثانية من الرماه الافريقيين ، وثلاث سرايا من الكتيبة البولونية الى جانب

---

(١) انظر تفاصيل هـــذه المعـــاهدة فى اديب حرب ، مرجع سابق ، ص . ص ١٦٦ – ١٦٧ .

(٢) ابو العبـــاس أحمـــد بن خالد النـــاصرى ، الاســتقصـــاء ، ج ٩ ، الدار البيضاء ، ١٩٥٦ ، ص ٤٣ .

(٣) انظر خريطة رقم (١) .

خريطة رقم (١)
دولة الإمارة المغربية سنة ١٨٣٤

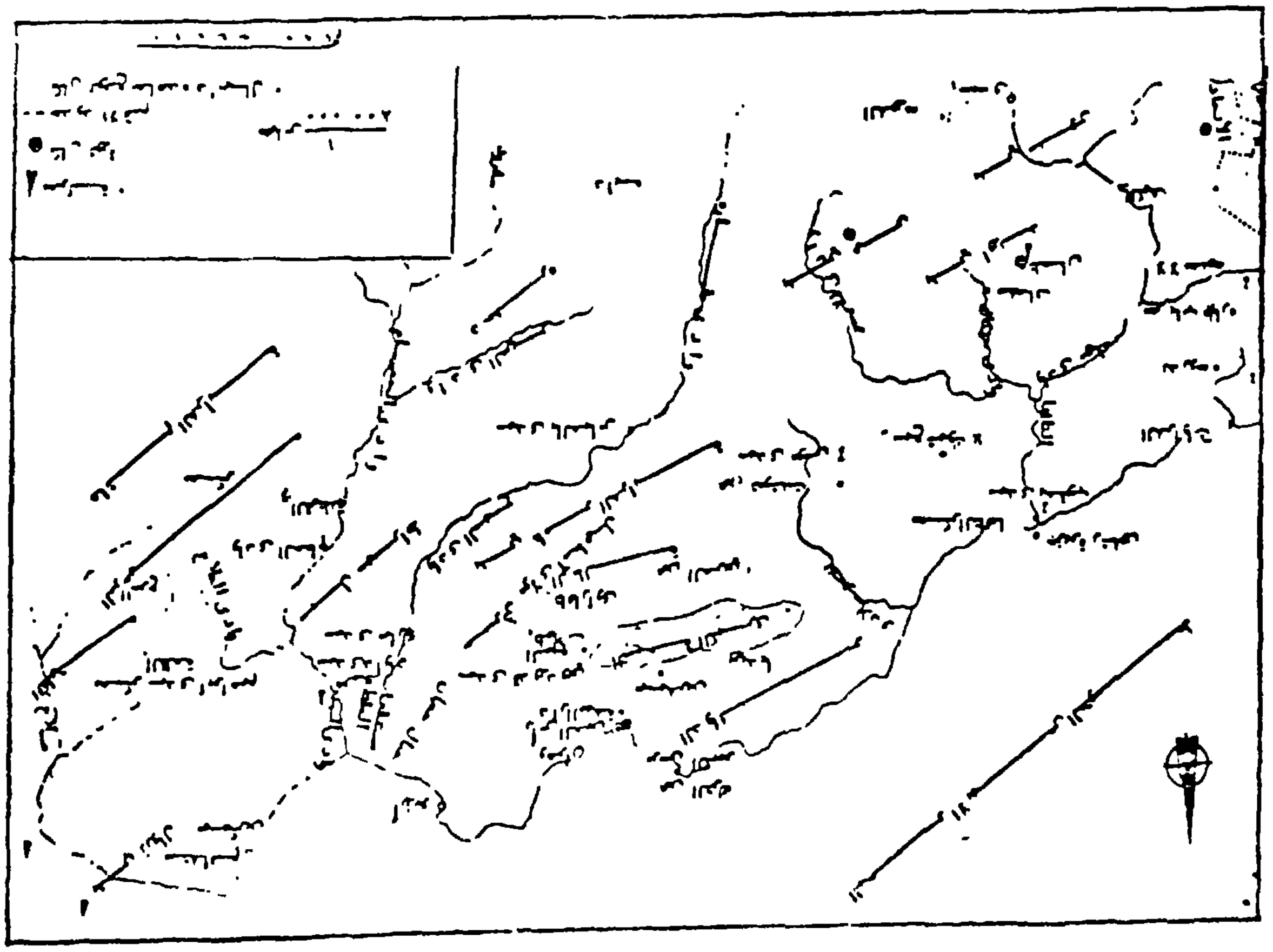

فصيلة هندسية ورغم كل هذه الاستعدادات فقد شعر الامير بأن الحالة تتطلب سرعة الحركة والتنفيذ حفاظا على جيشه ، وفضل مقابلة تريزول رغم قلة عتاده الحربى وعدم تدريب جيشه على النظام الحديث • وكانت قوة الامير حوالى عشرة آلاف فارس وثمانية آلاف مقاتل غير نظامى و ١٥٠٠ جندى من المشاه النظاميين ، وقسم الامير عبد القادر هـذه القوة الى ثلاث وحدات قتالية ، فأصبحت الميمنة بقيادة الخليفة البوحميدى وتحت تصرفه المشاه غير النظاميين ، والميسرة بقيادة بوشفور والمذارى ، وتحت تصرفهما الفرسان • أما القلب فكان يضم المشاه النظاميين بقيادة الامير عبد القادر نفسه (١) •

وانطلق الامير عبد القادر بقواته من معسكر لكى يوقف زحف وحدات تريزول وحتى لا تدخل عاصمته ، والتقت القوتان عند غابة سيد اسماعيل التى تقع على بعد ثلاثين كيلو مترا من وهران ، وما أن توغلت القوات الفرنسية عدة أمتار داخل الغابة حتى أمطرتها قوات الامير بوابل من النيران ، وأحاطوا بتلك القوة الفرنسية مما أحدث ضجيجا فى الغابة ، واضطرت مقدمة الجيش الفرنسى الى التراجع فى حالة من الفوضى ، وتقدمت قوة العقيد الفرنسى أورينو لنجدة هذه القوات الفرنسية فأصابته رصامته سقط على أثرها قتيلا فى الحال ، وصارت قواته هدفا لفرسان الامير • وعجز تريزول عن التقدم بقوات الاحتياطى لانقاذ هذا الجيش الفرنسى الذى بدأ يعيد تنظيم قواته ثم تحول الى مهاجمة مؤخرة قوات الامير الذى شعر بصعوبة الموقف ، وتعذر عليه متابعة القتال أمام هذه القوة الاوربية التى تحمل أحدث الاسلحة المتطـورة ، وفضل التراجع بقواته من غير النظاميين الى الجبال القريبة • كما انسحبت قوات الفرسان بسرعة الى مرابط سيدى داود مولاى عبد الرحمن • وكانت هـذه حركة بارعة من الامير عبد القادر الذى استطاع انقاذ قواته من الهجوم الفرنسى ، ولما أحس بأن قواته صارت محمية من الخلف أسرع لملاقاة تريزول بعيدا عن أسوار العاصمة • وهكذا نجح الامير فى الخروج من غابة مولاى اسماعيل ، وانتقل اعلى مستنقعات المقطع انتظارا لقدوم القوات الفرنسية لتبدأ مرحلة جديدة وسلسلة أخرى من المعارك •

---

(١) أديب حرب ، مرجع سابق ، ص . ص ٢٠٠ — ٢٠٢ .

معركة المقطع :

انتهت معركة غابة مولاى سيدى اسماعيل دون أن يحقق أى من الطرفين انتصارا حاسما وتحركت الوحدات الفرنسية شمالا فى اتجاه سهل سيراط ، واستقرت على الضفة اليسرى لوادى السيج • وكان الامـير عبد القادر قد صمم على مواصلة القتال اذا رفض تريزول العودة الى وهران • وساعد الامير على المضى قدما فى قتاله وصول نجدات من القبائل المجاورة تعدن ١٤ ألف فارس و ٢٥٠٠ من المشاه غير النظاميين • وتوجه الامير بهـذه القوات الى سهل السيج وعسكر على بعد ثمانية كيلو مترات من مواقع الفرنسيين ، وسيطر الامـير على مدخل الوادى المشرف على مستنقعات المقطع (١) •

وكأن الامـير عبد القادر يرغب فى تفادى اراقة الدماء اذا انسـحب الفرنسيون لكن مستشارى الامير نصحوه بسد الطرق أمام جيش تريزول مهما كانت التضحيات ـ كما حاول الامير اتصال بالفرنسيين لتغيير معاهدة داميشل لكن تريزول رفض كل اقتراحات الامير وخصوصا ابقائه سيدا على المقاطعة الغربية • وتدهورت العلاقات بين الطرفين وصـارت الحرب هى الفيصل الوحيد •

وفى ٢٨ يونية ١٨٣٥ قرر تريزول مواجهة قوات الأمير عبد القـادر الذى جمع رجاله ورتب عملية المواجهة مع الفرنسـيين ، وبدأت المعركة فى نفس اليوم وهاجمت القوات الجزائرية الفرنسـيين من كل الجهات ، فتراجع الفرنسيون فى حالة من الفوضى والاضطراب ، واختل نظامها ، وأرسل تريزول سريتين من الكتيبة الايطالية لمساندة المجموعة الأولى ، وأثناء تقـدمهم فى الوادى انقض عليهم الجزائريون وكبدوهم خسـائر فادحة ، وتجلت هذه المعركة قدرات الامير عبد القادر القتالية ، وظهرت عبقريته العسكرية وصموده القوى رغم استشهاد عـدد كبير من أبطاله الشجعان الذين خاضوا أول معركة حربية ضد عدو يفوقهم عددا وعتادا ، ولكن خطة الامير فى ملاحقة الجيش الفرنسى فى معركة المقطع • ومحاولاته الضغط على فرق هذا الجيش ، ومنعها من تجميع عناصرها المتفرقة حول المستنقعات حقق الامير النصر فى هذه المعركة •

---

(١) انظر الخريطة رقم (٢) .

ولكن الفرنسيين لم يقبلوا الانسحاب أو الهزيمة أمام جيش الامير عبد القادر فأعادوا بسرعة بناء الوحدات ، ودخلوا فى معارك جديدة مع الامير ، وتولى القيادة الجنرال كلوزل De Clauzel الذى استطاع الدخول بقواته فى عاصمة الامير عبد القادر ، ولكن هذا لم يحقق هدف الفرنسيين فى القضاء على الامير ، وجهاده ضدهم ، بل على العكس زادت هذه العملية من نشاطه واصراره وايمانه بتحقيق الهدف الذى يسعى اليه وهو طرد القوات الفرنسية من بلاده وجعل راية الاسلام خفاقة فى كل الوطن الجزائرى •

وواصل الامير حروبه ضد قائد فرنسى جديد هو دارلنج Darling ودارت معركة وادى الاطشم فى العاشر من ابريل ١٨٣٦ ، ونجح الامير فى استخدام عنصرى الحركة والتنقل بسرعة فى ميدان القتال وبذا فوت على الفرنسيين فرصة النيل منه أو ايقاع الهزيمة برجاله رغم الفارق الكبير فى التسليح والعتاد والتدريب والتنظيم (١) •

ولم يتوقف القتال عند هذا الحد بسبب اصرار الفرنسيين على القضاء عليه ، ولذا فقد واصل دارلنج استعداداته ، وأقام التحصينات فى معسكر تافنا ، واتجه نحو منطقة سيدى يعقوب تلك القرية الصغيرة التى تقع جنوبى غربى مصب وادى التافنا • وأمام هذا الاصرار الفرنسى ، صمم الامير على مواجهة الفرنسيين مهما كانت النتائج وفى الخامس والعشرين من ابريل أخذت قوات الامير جيش دارلنج على غرة عند مرابط سيدى يعقوب ، واستطاع الامير محاصرة الفرنسيين فى ثلاثة أماكن ، وأبقى الامير خليفته البوحميدى قائدا لقواته حول مرابط سيدى يعقوب ، وقد نفذت مؤن الفرنسيين ، وزاد الطين بلة أن هبت عاصفة عاتية لمدة أحد عشر يوما ، مما جعل الفرنسيين فى موقف صعب ، وفى حالة سيئة ، وبالتالى ضاع أملهم فى ضم المقاطعة الغربية للجزائر ، ونجح الامير فى محاصرة الفرنسيين فى المواقع الثلاث فى كل من تلمسان وسيدى يعقوب ومعسكر التافنا (٢) •

وتأزم موقف الفرنسيين للغاية بسبب عدم وجود قوات كافية للتحرك وانقاذ دارلنج وأمام هذا الموقف قرر وزير الدفاع الفرنسى الجنرال مازون

---

(١) أديب حرب ، مرجع سابق ، ص ٢٧٣ .
(٢) انظر هذه المواقع على الخريطة رقم (٢) .

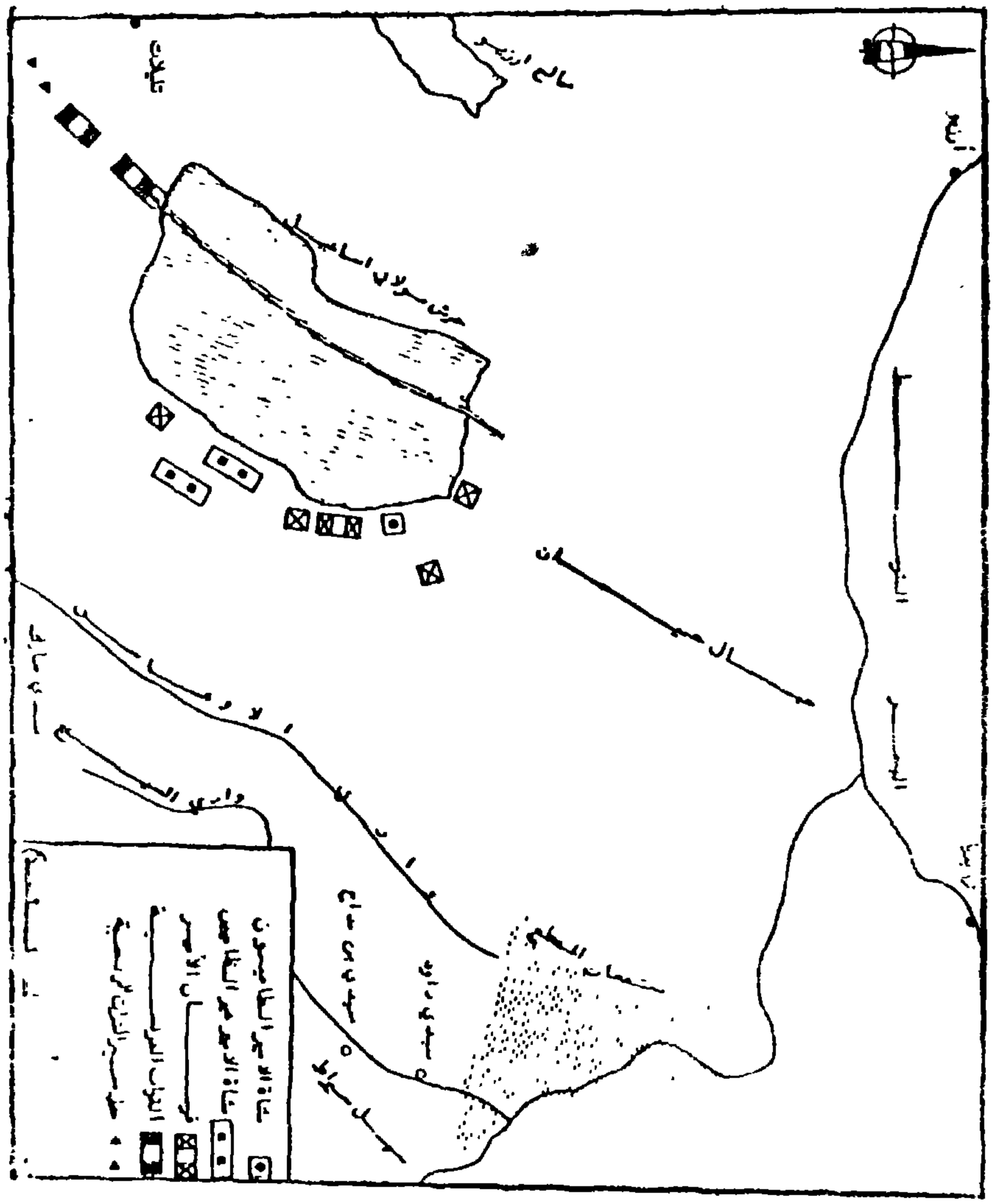

خريطة رقم (٢)
معركة غابة مولاى اسماعيل ٢٦ حزيران ١٨٣٥

ارســال فر، جديدة الى الجزائر حتى يستطيع السيطرة على الموقف وبعد مناقشات طويلة ، ومشاورات مكثفة قررت الحكومة الفرنسية ارســال الجنرال بيجو Bugeaud الى وهران (١) •

وكانت المهمة التى كلف بها هــذا القائد الفرنسى الجديد تتلخص أساسا فى فك الحصار عن معسكر التافنا ، والدفاع عنه ، ووضــع خطة لاستخدام وادى تافنا الذى يصل تلمسان بالبحر المتوسط ، وأخيرا نجدة القوات الفرنسية فى تلمسان ، واعادة المواصلات بينهما وبين شاطىء البحر المتوسط •

وبمجرد وصول هذا القائد الى الجزائر حتى بدأ فى شرح خطته لقواد جيشه تلك الخطة التى تعتمد أساسا على القوات الخفيفة والسريعة الحركة بدلا من لتمركز فى المواقع لعســكرية الثابتة ، والاستغناء عن العربات ووسائل النقل الكبيرة ، واستخدام الخيل والبغال كوسيلة للحمل ، كذلك اختيار الضباط الشبان والجنود الاقوياء لهذه العمليات العســكرية • وفوق كل هذا استبدال الاسلحة القديمة بأسلحة حديثة متطورة • وبعد أن جهز القــائد بيجو قواته ، وشرح خطته بدأ يستعد لملاقاة الامــير عبد القــادر •

معركة السكاك فى ٦ يولية ١٨٣٦ :

وفى الثانى عشر من يونية تقدم بيجو على رأس قواته متخذا من طريق الشاطىء مسارا له ، بعد أن ترك فى مصب تافنا قوة بلغت ١٨٠٠ رجل • وما ان علم الامير بتحركات بيجو حتى انتقل فورا بقواته وركز على طريق

---

(١) ولد الجنرال بيجو فى ١٥ أكتوبر عام ١٧٧٤ وعمل بالزراعــة ثم التحق بالجيش فى مايو ١٨٠٤ برتبة جندى ، ووصل الى رتبة عريف فى عام ١٨٠٥ ثم حصل على ملازم فى ابريل عام ١٨٠٦ ، ونقل الى اسبانيا حيث حارب هناك لمدة ست سنوات وتعلم مبادىء حرب العصابات ، وترك الجيش برتبة عميد فى عام ١٨١٧ ، لكنه عاد الى الخدمة فى ٨ سبتمبر عام ١٨٣٠ ، وأرسلته الحكومة الفرنسية الى الجزائر عام ١٨٣٦ حيث حارب الامــير عبد القادر فى معركة السكاك فى ٦ يولية ١٨٣٦ وانتصر عليم . وفاوض الامير ووقع معه معاهدة التافنا بتاريخ ٣٠ مايو ١٨٣٧ ، وصار حاكما عاما للجزائر فى أوائل عام ١٨٤١ وظل حتى عام ١٨٤٧ حيث عاد الى فرنسا ومات فى ٦ يونية عام ١٨٤٩ •

Luca, Dubrelon : Bugeaud, Le Soldat, le depute, le colonisateur. Paris 1913, P. 1-60.

انظر الخريطة رقم (٣) لمعركة سيدى يعقوب •

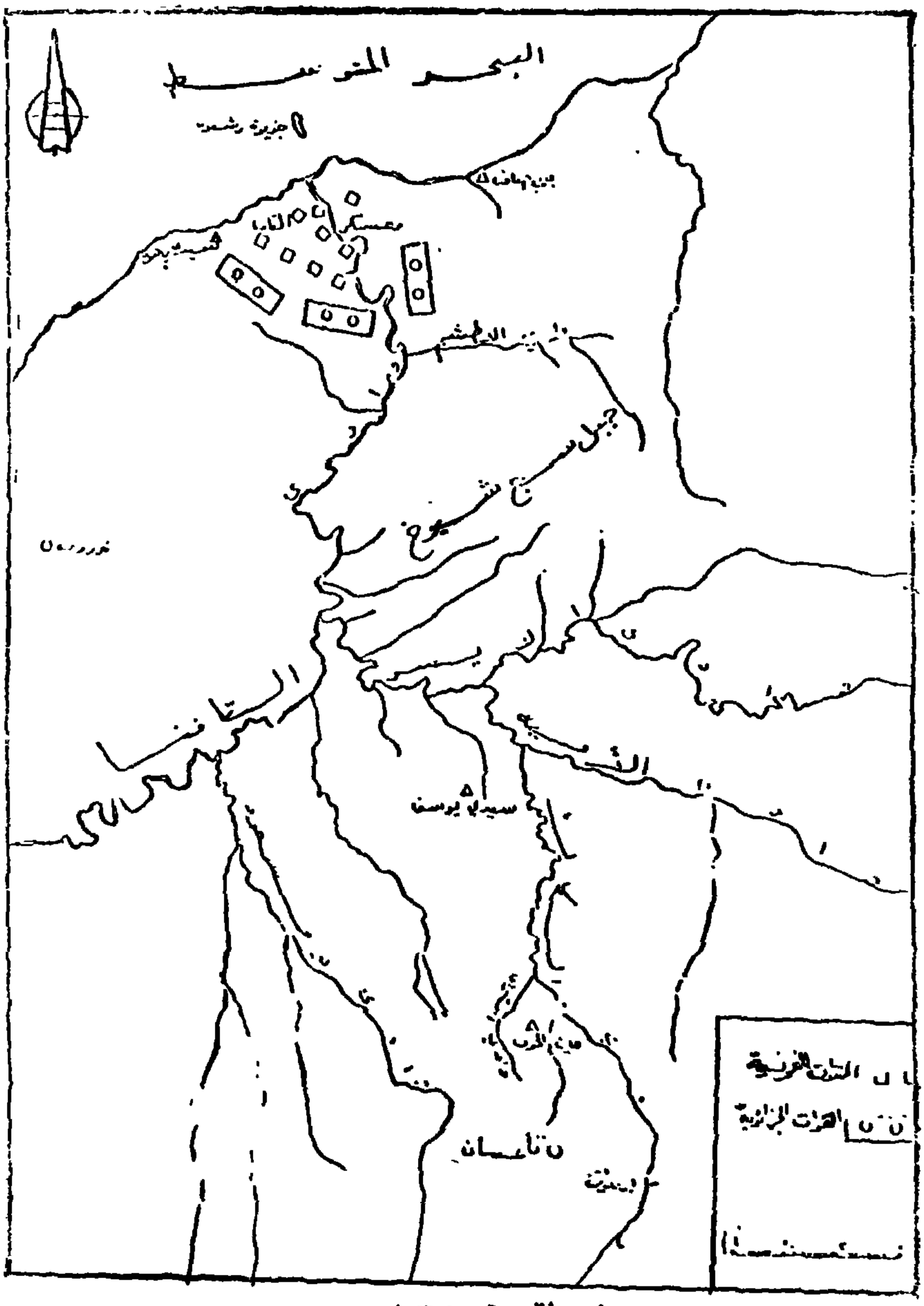

خريطة رقم (٣)
معركة سيدى يعقوب ـ ٢٥ نيسان ١٨٣٦

وهران تلمسان • وفى ٤ يولية اتخذت القوات الفرنسية طريقها نحو تلمسان ، وتحركت عناصر من جيش الامير واتخذت أيضا مواقع لها لمراقبة تقدم تلك القوات الفرنسية • وفى ٦ يولية هبت رياح ساخنة ، وانتشر الضباب وتقدمت فرق الامير نحو ميدان القتال ، وعندئذ أمر بيجو بتكثيف القصف المدفعى ، وردت قوات الامير باطلاق النيران على القوات الفرنسية لكن التفوق الحربى الفرنسى نجح فى اخماد المدفعية الجزائرية ، واضطر الامير الى وقف القتال والانسحاب وهكذا أفلتت قواته من ضغط القوة الفرنسية التى استولت على السكاك وأسرت ١٣٠ من الجزائريين بالاضافة الى ٣٢ قتيل و ٧٠ جريحا (١) •

وبالرغم من الخسارة التى حلت بجيش الامير الا أنه أظهر شجاعة وقدرة على الصمود والمراوغة ، وانسحب من ميدان القتال بعد أن أدرك أن البقاء والمواجهة مع الفرنسيين تعنى الانتحار لجيشه • وتقدم جيش بيجو بعد معركة السكاك نحو تلمسان فى ٧ يولية فدخلها دون مقاومة ، ورغم كل هذا فقد فشل بيجو فى القضاء على الامير وقواته • وأدركت فرنسا أنه قوة لا يستهان بها ولذا فان بيجو أعلن فى ١٦ مارس ١٨٣٧ ، لوزير الحربية الفرنسى بأنه يرغب فى عقد صلح مع الأمير ، ووافقت الحكومة الفرنسية على هذا الطلب ، وكلفت بيجو للقيام بهذه المهمة مع الامير •

وبدأت المفاوضات بين مندوب الامير وبيجو فى ١٢ أبريل عام ١٨٣٧ وأخيرا توصل الطرفان الى توقيع معاهدة التافنا فى ٣٠ مايو ، وهى المعاهدة التى نظمت العلاقة بين الامير والفرنسيين ، والتى اعتمدها الملك لوى فيليب فى ١٥ يونية ١٨٣٧ (٢) •

وقد استفاد الأمير من هذه المعاهدة التى أعطته فسحة من الوقت لكى يثبت أقدامه ، ويدعم نفوذه السياسى فى الداخل ، كما استطاع اعادة بناء الجيش على أسس حديثة، واعترفت فرنسا بنفوذها على ولايات وهران والجزائر وتبطرى ، كما كانت هذه المعاهدة اعترافا صريحا من جانب

---

(١) صلاح العقاد ، مرجع سابق ، ص ١١٥ ، وايضا محمد خير فارس ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩ •
(٢) جلال يحيى ، السياسة الفرنسية فى الجزائر ، ص ١٢٦ •

الحكومة الفرنسية بامارة عبد القادر على ثلاثة أرباع الجزائر (مادة ٢ ، ٣) الحكومة الفرنسية بامارة عبد القادر على ثلاثة أرباع الجزائر (مـادة ٢ ، ٣) ، كما نصت على حرية التجارة بين المنطقة الفرنسية دولة الامير ، ودعمت هذه المعاهدة من مركز الامير وجعلته القوة الوحيدة للتعامل مع الداخل ــ وفى مقابل هذا اعتراف الامير بالسيادة الفرنسـية على بعض مناطق الجزائر (١) .

وهكذا تعتبر معاهدة التافنا بداية مرحلة من السـلام بين الجزائر وفرنسا ، وساعدت كلا من الطرفين على الاستفادة من هذه الفترة لبناء قواته ، واعادة تنظيم أموره ، وحقق الامـير بهذا الاتفـاق ما لم يكن يستطيع تحقيقه بنصر عسـكرى حيث تبين أن بيجو قدم فى اتفاق سرى تنازلات أوسع مثل تقديم ٣٠٠٠ بندقية للامـير ، ومنع قبـائل الدوايرة والزمالة من تجاوز حدود معينة .

الامير عبد القادر والطريقة التيجانية :

أدرك الامير عبد القادر أن الجبهة الداخلية هى لب حرب التحرير ولجمتها ، ولذا كان قبوله التفاوض مع العدو ومهادنته السبب الرئيسى لكى يتفرغ للجبهة الداخلية ، جبهـة الصـمود ، وركيزة التحرر من الاسـتعمار الفرنسى ، ولذا لم يكن غريبا أن تشـهد الفترة التى تلت توقيع معاهدة التافنا بداية مرحلة شاقة من التنظيم والاعداد والتنسيق ، والاستعداد لمعارك حرب التحرير ، فهى بمثابة هدنة مؤقتة حتى يستعيد قواته ، ثم يكمل المرحلة الجديدة من الكفاح ضد العدو الفرنسى .

واعتمد الامير على بناء دولة ترتكز على اخلاص الحـاكم ، وثقـة المحكومين على عكس نظام الحكم العثمانى الذى كان سطحيا ومنعزلا عن السكان . ولذا بنى الامير دولته على قوتين ، قوة رغبة ، وقوة رهبة ، وكانت الرغبة هى المحك الرئيسى لان غالبية السكان كانت تقدم له فروض الطاعة والولاء عن رغبة أكيدة ونية صادقة (٢) .

---

(١) انظر الوثيقة رقم (١) ، بيان من الجنرال (دانربيمون) حاكم بلاد شمال افريقية يوضح فيه بأن فرنسا لن تتخلى عن الجزائر وبانه بعد سبع سنوات من المعارك حان الوقت لجنى الفائدة من احتلال الجزائر .
المصدر : ارشيف ولاية قسطنطينة (الجزائر) .
(٢) محمد بن عبد القادر : المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

وكان الامير حريصا على عده اتخاذ قرارات فردية استغلالية لكنه كان حريصا على استشارة العلماء والاشراف ورؤساء القبائل ، واعتمد الامير على نفوذ الطرق الصوفية التى شاركت فى اتخاذ القرارات الهامة والمصيرية وفى أكثر من مناسبة أكد الامير على أن قبوله للبيعة وتولى منصب القيادة انما هو من أجل تحقيق الامن والامان لكل السكان ، وأن رغبته فى خضوع الناش لاوامره كاخوة من أجل طرد الكفار من الجزائر ونجح الامير فى كسب رجال الدين الى جانبه عن طريق استشارتهم والحصول على فتاوى منهم ، كما حصل على الامير على تأييد الرأى العام المغربى التيجانية التى تعارضه فى مدينة عين ماضى (١) •

وما ان انتهى الامير من توقيع اتفاق التافنا (Tafna) فى ٣٠ من مانو ١٨٣٧ حتى أسرع للتعامل مع المعارضين له وبسرعة استطاع اخضاع قبائل بنى مختار ، وبنى نايل (Nail) وبنى موسى ، وبنى عبيد وحاول الامير عبد القادر اخضاع الطريقة التيجانية فى عين ماضى لسلطانه • وعين الامير الحاج العربى بن سيدى عيسى رئيسا للقسم الشرقى من قبائل الاغوات ليكون نائبا عنه فى المنطقة ، لكن رفض التيجانيون الخضوع وعلى هذا قرر الامير عبد القادر مهاجمتهم واخضاعهم بالقوة (٢) •

لقد قاوم التيجانيون قوات الامير عبد القادر من يونية حتى نوفمبر عام ١٨٣٧ بالرغم من قلة عدد رجالهم لان الامير عبد القادر هاجم عين ماضى بحوالى ٣٦٠٠ رجل ، وأثناء الحصار وصل عدد قواته ثمانية آلاف مقاتل بينما كان المدافعون فقط لا يزيد عن ٧٠٠ رجل (٣) •

وأثناء الحصار الذى استمر خمسة أشهر حاول الامير اختراق الاسوار عدة مرات لكن التيجانيين كانوا يعيدون بناء الاسوار بالليل لكن الحصار الطويل جعل الطرفين يسعيان الى الصلح والاتفاق •

وقد تم التوصل الى معاهدة ما بين محمد الصغير بن الشيخ أحمد التيجانى وبين صهر الامير عبد القادر فى ١٧ نوفمبر ١٨٣٨ لرفع الحصار بالشروط الآتية :

---

(١) محمد خير فارس : مرجع سابق ، ص ٢٤٤ •

(٢) محمد عبد القادر ، مرجع سابق ، ص ١٩٦ •

(٣) Arnud, L. : Siege d'Ain Madhi, Paris 1864, PP. 368-369.

اولا : أن يدفع محمد الصغير تكاليف الحصار للامير عبد القادر •

ثانيا : ان تجلو قوات الامير عبد القادر من عين ماضى خلال أربعين يـــوما •

ثالثا : يسمح لرئيس التيجانية بأخذ كل ثرواته المنقولة •

رابعا : أن يسمح لسكان المدينة بالرحيل معه •

خامسا : يترك رئيس التيجانية ابنه كرهينة لدى الامير لضمان تنفيذ بنود الاتفاق •

لكن أثبتت حملة الامير عبد القادر ضد عين ماضى أنها أضرت بـــه وبمكانته العسكرية ، علاوة على فشلها فى تحقيق الهدف الرئيسى لاجبار محمد الصغير على الرضوخ للامير عبد القادر •

ولقد استفاد الفرنسيون كثيرا من حصار الامير لعين ماضى لانه فى الوقت الذى كان الامير مشغولا فيه بحصار التيجانية قام الجنرال فالى القائد العام للقوات الفرنسية فى شمال أفريقيا بتدعيم نفوذه فى المنـــاطق الشرقية من الجزائر •

وكانت الآمال تراود محمد الصغير فى اقامة دولة تيجانية فى الجزء الجنوبى من الجزائر بعد خروج العثمانيين منها • وكانت هذه الامـــال معروفة لدى الفرنسيين ، لكن حصار الامير لعين ماضى وتدميرها جعـــل هذا الحلم صعب المنال •

وبعد استسلام محمد الصغير حاول مفاتحة الجنرال فالى (Valee) وكتب اليه فى ٢١ يولية ١٣٨٩ يعبر عن آماله ، وطلب منهم الاعتراف به كزعيم للبادية ، وتعهد بدفع ضريبة العشر والزكاة للفرنسيين مقابل امداده بالاسلحة ، كما تعهد بطرد كل أعداء الفرنسيين من المنطقة التى سيكون تحت سيادته بالاضافة الى تسهيل مهمة الفرنسيين فى السيطرة على القبائل البدوية (١) •

---

(١) Vales to Min, Sec. d'Etat au dep de la Guerre, 17 Aug. 1839 in ANP. F. 80 16730.
(Archives Natinales des paris).

وما ان وصل هذا الخطاب الى السلطات الفرنسية حتى بدأت تستفيد من هذا التحالف ، ولما تولى الجنرال بيجو قيادة القوات الفرنسية فى الجزائر فى فبراير عام ١٨٤١ طلب من السيد روشيه (Roches) ، الاتصال بمحمد الصغير حتى يضمن مساعدته فى الحصول على فتوى تبيح للمسيحيين فى الاستيلاء على مدن اسلامية دون أن يتأثر دينهم وكانت شروط روشيه أن يصبح الرئيس التيجانى تابعا للفرنسيين وأن يساعده فى حربه ضد الامير عبد القادر مقابل الحصول على السلاح والاموال ، ولكنه عليه أن يقدم ما بين ٥٠٠ ، ٦٠٠ حصان بجانب عدد من الابل (١) •

ووافق محمد الصغير على خطة روشيه ، وبعث الى القيروان للاعداد لهذه المهمة ، وتبنى المجلس الدننى الذى انعقد فى زاوية التيجانية اصدار الفتوى المطلوبة •

ويقول روشيه أنه ذهب الى القاهرة للتأكد من الحصول على الفتوى من علماء الازهر ، وانه قد ذهب الى مكة لاعتمادها من مجلس العلماء هناك (٢) •

ولكن مهما كانت ادعاءات روشيه فان المسلمين فى الجزائر لم يعترفوا بهذه الفتوى • وبالرغم من كل هذا فقد استمر التعاون بين الفرنسيين والطريقة التيجانية حتى بعد وفاة محمد الصغير وتولى سيدى محمد العبد أكبر أبناء سيدى على واستمرت الزاوية التيجانية فى القرن العشرين تؤدى خدمات للسياسة الفرنسية فى الجزائر (٣) •

بنى الامير دولته على المساواة وعدم التمييز بين الناس وأصلح القضاء ، وأوجد مجالس الاستئناف ، وكان حريصا على تطبيق العدالة ، كما وحد الضرائب وفرضها على الجميع بلا استثناء ، كما أوجد ضريبة المعوية لمساعدة الفقراء وكانت الضرائب تجنى عينا أو نقدا (٤) •

---

(١) Bugeaud to Min of War, I August, 1941.

(٢) Roches, Trente deuix ans, I. P. 440.

(٣) Abun Nasr Gamil : Op. Cit., P. 69.

(٤) شوقى الجمل ، المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٢٧٥ .

وأشرفت الدولة على التجارة والصناعة ، وكان الهدف من ذلك أن تشرف الدولة على كل شيء ، وأن تجعل الاقتصـــاد فى خدمة الاغراض الحربية بشكل عام ، واهتم الامير بالجيش لانه الدعامة الرئيسية والركيزة الهامة فى حرب الجهاد • ولهذا أسس الجيش على النظام لحديث ، وحدد الرتب والرواتب ، ومنح النياشين لكل من يظهر الشجاعة والاقدام أمام العدو الفرنسى ، كما أعطى رواتب لاهل الجند الذين يصابون فى المعارك ، ولقد بلغ عدد قوات الجيش النظامى فى عام ١٨٣٩ حوالى ثلاثة وخمسين ألف جندى • وفى جميع المعارك التى خاضها والتى تعدت العشرين كانت قواته النظامية جاهزة ، أما القوات غير النظامية فكانت تشارك فى القتال ثم تعود الى ديارها بعد انتهاء الجهاد • واتبع الامير فى حروبه اســلوب تجنب خوض المعارك المكشوفة ، واقتصر على المعارك الصغيرة ، ومعارك المفاجآت والكمائن ، كما اتبع اسلوب الكر والغز •

وبعد أن تغلبت فرنسا على الحكومة لداى أحمد فى شرق الجزائر ، بدأت تتجه الى الغرب حيث كانت قوة الامبر تزداد ، وبدأت فرنسا تسعى لتعديل معاهدة التافنا ، وفسرت المادة الثانية من هذه المعاهدة على أنها تخول لها الحق فى احتلال جميع الاراضى الواقعة وراء وادى خضارا من مقاطعة قسنطينة ، ولكن الامير لم يقبل هذا التفسير •

ولما حدث الخلاف بين الطرفين أرسل الامير وفدا الى باريس لحسم هذا الخلاف ، لكن الحكومة الفرنسية أفادت أن المفاوضات من اختصاص حاكم الجزائر • وعاد الوفد يجر أذيال الخيبة والفشل ، وكان واضحا أن القوة هى السبيل الوحيد لفرض ما يريده ، وليحافظ على شروط المعاهدة مع الفرنسيين •

وكان توسع الفرنسيين فيما وراء منطقة متيجا بمثابة نقض للمعاهدة مع الامير ، الذى كتب الى المارشال فالى فى ٣ نوفمبر ١٨٣٩ معلنا أن هذا التوسع يعد خرقا صريحا لمعاهدة التافنا (١) • ولما تأكد الامير أن الفرنسيين يحاولون كسب الوقت قرر محاربتهم ، وأصـــدر أمرا بالهجوم على اقليم

---

(١) انظر الوثيقة رقم (٢) مكتوبة بخط يد الامير عبد القادر الجزائرى الى الجنرال بيجو يطلب منه الالتزام بتنفيذ الصلح الذى وقع بينهما ووافق عليه سلطان الفرنصيص وتعهد له بالوفاء بما تم الاتفاق عليه فى ٢٥ ربيع اول عـام ١٢٥٤ هـ •
المصدر : ارشيف ولاية قسنطينة ــ بالجزائر •

متيجا من الغرب والجنوب والشرق بثلاث فرق من المجاهدين ، واضطر فالى الى طلب نجدات من فرنسا فأرسلت اليه الحكومة حوالى ١٣٠٠٠ جندى بالاضافة الى ٤٨٠٠٠ جندى بعد عدة أشهر ، ووجدت الحكومة الفرنسية أن الجنرال فالى ليس بالرجل الذى تستطيع تنفيذ سياسة فرنسا فى الجزائر ، فقررت تغييره وتعيين الجنرال بيجو حاكما عاما للجزائر فى ٢٩ ديسمبر ١٨٤٠ ، وكان هذا يعنى بداية مرحلة جديدة حيث اعتبر الفرنسيون تعيين بيجو بمثابة تحول من سياسة الاحتلال الجزئى الى الاحتلال الشامل لكل القطر الجزائرى •

والجدير بالذكر أن الجنرال بيجو هو نفس القائد الذى كان قد وقع مع الامير معاهدة التافنا فى عام ١٨٣٧ ، واعترف فيها بسلطة الامير عبد القادر على الساحل وأرض وهران والمتيجة ومستغانم ، ولكنه عاد فى عام ١٨٤٠ بسياسة جديدة ، وبشروط جديدة تخالف السياسة التى سارت عليها فرنسا منذ ثلاث سنوات ، وكان التحول فى السياسة الفرنسية يعنى نقض معاهدة التافنا ، وبالتالى الدخول فى حرب جديدة مع دولة الامير عبد القادر •

القضاء على مقاومة الامير عبد القادر :

وجد بيجو أن الامير عبد القادر يتبع اسلوب الكر والفر • ويتجنب خوض معارك كثيرة • ولذا فانه قرر اتباع نفس أسلوب الحرب عند الامير ، وأدرك بيجو أن أفضل وسيلة للدفاع والوقاية هو الهجوم ، وعندما استعرض بيجو قوة الامير الحقيقية وجد أنها تكمن فى رجال القبائل وليس فى جيشه النظامى ، ولذا بدأ التركيز على القبائل ، وشن غارات عليها حتى يحدث خللا وقطيعة بينهما وبين الامير وجيشه النظامى ، وكانت هذه سياسة ماكرة ، وخدعة غريبة من جانب رجال تدربوا على حرب العصابات مثل بيجو • ولم يتوقف القائد الفرنسى عند هذا الحد بل انه رسم سياسته على أساس حرمان العرب والمسلمين من مواردهم التى تنتجها أرضهم فقام باتباع سياسة حرق الارض التى أدت الى ابادة قبائل بأسرها نتيجة الاختناق بالدخان ، ولكن رغم كل هذه المحاولات ، وتلك السياسات البربرية ، وبالرغم من تفوق سلاح العدو الفرنسى،وبالرغم من الامكانيات العسكرية والمالية التى وضعت تحت تصرف الجنرال بيجو ، الا أنه لم يستطع تحقيق

النصر على الامير عبد القادر الا بعد سنوات من تطبيق هذه السياسة الوحشية (١) .

وفى عام ١٨٤١ استولى بيجو على كازه ومدينة المعسكر ، ثم استولى على تلمسان فى العام التالى ، وفقد الامير جزءا كبيرا من قلاعه واراضيه ومستودعاته بل ومعظم جيشه النظامى ، ونجح الفرنسيون فى قتل مبارك قائد الجزائر الشهير والساعد الايمن للامير عبد القادر وذلك فى المعركة التى وقعت عند سيدى يحيى فى ١١ من نوفمبر ١٨٤٣ . وكانت هذه ضربة قوية للامير عبد القادر الذى اضطر الى الانتقال الى الصحراء وأخيرا اتجه الى بلاد المغرب حيث وجد مناصرة وتأييدا من المولى عبد الرحمن ، وكان يقدم له كل عون ومساندة ، وكانت أنباء انتصاراته على الفرنسيين تجد صدى لها فى بلاد المغرب ، كما كان الشعب المغربى يتابع هذه الانتصارات بكل بهجة وسرور(٢) .

ولما أحس الفرنسيون بأهمية هذا الدعم الحربى للامير عبد القادر ، قرر بيجو التوغل فى الاراضى المغربية ، وفعلا عبرت القوات الفرنسية الحدود والتقت بالقوات المغربية فى معركة اسلى فى ٣٠ مايو عام ١٨٤٤(٣).

واستولى الفرنسيون على ميناء طنجة فى المدخل الغربى للبحر المتوسط، كما احتلوا مدينة وجدة وأمرت فرنسا قنصلها بالمغرب بالتفاوض مع سلطان المغرب الى الدخول فى مفاوضات انتهت فى العاشر من سبتمبر ١٨٤٤ بالتوقيع على معاهدة طنجة التى نصت على انسحاب العساكر الفرنسية من وجدة ، وتتعهد الحكومة المغربية بانزال العقاب بكل من يعتدى على الحدود الشرقية الجزائرية ، وأيضا اخراج الامير عبد القادر من بلاد المغرب اذا ما لجأ اليها. وبالطبع كان توقيع هذه المعاهدة لطمة كبرى لجهاد الامير عبد القادر الذى كان يجد الحصن الحصين ، والدرع القوى والدعم العسكرى والمعنوى فى بلاد المغرب (٤) .

---

(١) وصل عدد القوات التى وضعت تحت تصرف الجنرال بيجو حوالى ١٠٨ الف جندى ، وهو ما يعادل ثلث الجيش الفرنسى ، كما وضع تحت تصرفه ١٠٠ مليون فرنك .

(٢) ابو العباس الناصرى ، الاستقصاء ، جـ ٩ ص ٤٦ .

(٣) شوقى الجمل ، مرجع سابق ، ص . ص ٢٣٦ ـ ٢٣٩ .

(٤) تضمنت اتفاقية الصلح مع الفرنسيين عدة شروط منها نفى الحاج عبد القادر من البلاد لما فى بقائه هنالك من اثارة الفتنة بين الدولتين بلا فائدة . ابو العباس الناصرى ، الاستقصاء ، جـ ٩ ، ص ٥٣ .

وعلى اثر هذا ازدادت الثورة الجزائرية اشـــتعالا فى كل مكان ، بل وامتدت الى وادى الشليف والى منطقة الحدود المغربية والى تيطرى • وعين الامير عبد القادر « بومعزة » خليفة له ، وهذا ما أجبر بيجو الى العودة بسرعة من فرنسا الى الجزائر ، وقام على الفور برسم سياسة جديدة على أساس انشاء ثمانية عشر طابورا تشكل نصف دائرة تمتد من وادى تافنا الى منطقة القبائل وتمنع توغل المجاهدين القادريين فى منطقة التل • وفى نفس الوقت تهاجم قوات الامير عبد القادر وتطوقها ، ولكن المجاهدين فوتوا على الفرنسيين هذه الفرصة ، ونجحوا فى اختراق خطوط الدفـــاع الفرنسية ، وتوغلوا فى الصحراء •

وبعد عاما ١٣٤٥ ، ١٨٤٦ من أصعب السنوات التى عاشتها القوات الفرنسية فى الجزائر بسبب عنف مقاومة الامير ورجاله ، لكن قســـوة الفرنسيين فى حربهم ضد الشعب الجزائرى ، وانهاك قوى المجاهدين ، وانتشار الفقر والدمار والخراب فى كل أنحاء الجزائر بالاضافة الى فرض الحصار البحرى على موانى الجزائر وســـواحلها وأدى هـــذا الى عرقلة وصول الاسلحة الى الامير ورجاله ، واضطر القائد الجزائرى بومعزة الى التسليم للقوات الفرنسية ، وحاول بيجو الحصول على امدادات كافيـــة لغزو القبائل الجزائرية ، لكن الحـــكومة لم تستجب الى طلبه فاضطر الى الانسحاب خوفا من الهزيمة ، وحل محله ابن الملك لوى فيليب ويدعى الدوق دومال وذلك فى ١١ من سبتمبر ١٨٤٧ •

وحاول الدوق دومال السير على نهج السياسة التى انتهجها بيجو ، وضيق الخناق على الامير ورجاله ، فاضطر الى الانسحاب الى المغرب ، فما كان من فرنسا الا أن ضغطت على سلطان المغرب ، وأخبرته بأن قواتها سوف تدخل المغرب لتعقب الامير عبد القادر ، وكان رد سلطان المغرب أن طلب من عبد القادر تسريح قواته ، والحضور بنفسه الى مدينة فاس ولما رفض الامير هذا الطلب أرسل السلطان قوة عسكرية لتنفيذ أوامره ، كما وضع الفرنسيون خمسة آلاف جندى على الحدود لانتظار خروج الامير عبد القادر من الاراضى المغربية • واضطر الامير أمام كل هذه القـــوى المحيطة به من كل جانب الى الانسحاب نحو الحدود والدخول فى الاراضى الجزائرية (١) •

---

(١) جلال يحيى ، السياسة الفرنسية فى الجزائر ، ص ١٦٤ .

كانت القوات الفرنسية تعرف كل خطط الامـير ، وتعرف تحركاته فأقامت نقاطا عسكرية على طول الحدود ، وصار الأمير وحيدا فى معارك ضد جيش منظم ومجهز بأحدث الاسلحة ، وزاد من صعوبة الموقف تساقط قيادات الامير الواحـدة تلو الاخرى فى أيدى الفرنسـيين ، لكنه ظل صامدا ، وواصل المقاومة ، وأخيرا وبعد أن ضاقت به كل السبل لم يجد نصيرا يقف بجانبه فجمع رجاله من أصحاب الطريقة القادرية وقال لهم :

« ان الاحوال كما ترون ، والاخبار على ما تسمعون فما الرأى وما الحيلة : فقالوا الرأى لسيدنا والذى يراه نحن معه ، فقال الامير لا أرى الا التسليم لقضاء الله والرضا به ، لقد أجهدت نفسى فى الدفاع عن الدين والبلاد ، وبذلت ما فى وسعى فى طلب الراحة للجميع ، وأقمت على ذلك ما يزيد عن سبع عشرة سنة ، اقتحم فيها الممالك ، واستحقروا العدو على كثرته ، وأرابط فى الاودية والجبال ، وأنصب له فيها المكايد والمصايد ، وتارة أنقض عليه انقضاض العقاب الجارح ، وتارة أنصب عليه انصباب السـيل الهادر ، ولازلت فى أيامى كلها أرى المنية ، واليوم فقـد فقدت الصديق والمساعد ، وأفنيت ما أملك من مال ومتاع ، فأصبحت لا أرى الا أفاعى الغدر تنهش جسمى بسمومها » (١) .

وبات الامير ليلته ، وفى الصباح بعث رسـوله الى الجنرال حـاكم الجزائر ومعه سيفه ، ولكن الجنرال أعاد السيف اليه ومعه ورقة ختمها بختمه على بياض ليضع الامير ما يريد من شروط .

طلب الامير أن يحملوه مـع عائلته الى عكا أو الى الاسـكندرية ، والا يتعرضوا لمن يرغب السفر معه من الضباط والجنود ، وأن ينال كل من بقى فى الوطن الامان على نفسه وعرضه وماله . وهكا تمت عملية استسلام الامير بعد أن أدى دورا بطوليا مشرفا استحق أن يسـجله التاريخ بكل اعزاز فى تلك الفترة المبكرة من الاستعمار الاوربى لشمال أفريقيا (٢) .

قبل الامير عبد القادر الجزائرى الاستسلام فى ديسمبر ١٨٤٧ بعد هذا الجهاد المرير الذى اسـتمر قرابة سبع عشرة عاما ، وسجن الامير فى

---

(١) الامير عبد القادر الجزائرى ، سلسلة ابطال العرب ، ص ٦٠ .
(٢) جلال يحيى ، المغرب العربى الحـديث والمعـاصر ، ص . ص ٥٦٨ — ٥٨٠ .

حصن فرنسى ، ثم سمح له بالسفر الى دمشق عام ١٨٥٢ حيث توفى هناك فى عام ١٨٨٣ •

لكن الشعب الجزائرى ورجال الطريقة القادرية لم نستسلموا برحيل الامير عبد القادر ، بل قامت الثورات فى كل مكان ضد الفرنسيين الذين كانوا يسيطريون فقط على الساحل ففى الاقليم الشرقى مثلا تزعم بوزيان حركة المقاومة ، والتفت القبائل حوله ، وتحصنوا فى واحتهم المنيعة ، ولم تستطيع القوات الفرنسية اقتحام المنطقة الا بعد قتال مرير ، وكانت المعارك تنتقل من شارع الى شارع ومن منزل الى آخر ، ولم تهدأ هذه القبـائل الا بعد أن أزال الفرنسيون الواحة وأعدموا الزعيم بوزيان ، وكانت هذه الاعمال الوحشية التى اقترفها الفرنسيون سببا فى اثارة الرأى العام الفرنسى نفســه (١) •

وظهر زعيم آخر فى منطقة القبائل ويدعى بوبغلة
الذى جمع أيضا القبائل من حوله وخصوصا قبائل الزوارا
التى دافعت عن ديارها ضد المستعمر الفرنسى الذى استخدم أيضا نفس الاساليب الوحشية • وظهر زعيم ثالث هو محمد بن عبد الله الذى بايعه أصحاب الطرق الصوفية وزعماء القبائل ، وققاد الكفاح المسلح ضــد الفرنسيين الذين اضطروا الى مواجهة هذه الثورات بأبشع وسائل القمع المسلح ، ولقد اشتد الكفاح الجزائرى بعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا فى عام ١٨٧١ حيث عمت الثورة فى كل مكان ، كما ظهر زعيم جـديد هو محمد المقرانى وأخوه بومزراق ، واشتمرت الثورة مدة تسعة أشــهر استخدم فيها الفرنسيون كل وسائل البطش والقمع حتى قضوا على الثورة ، وأعدموا قياداتها ، وكل هؤلاء الزعماء الذين تولوا القيادة ضد السيطرة الفرنسية يعكسون روح الجهاد الاسلامى ، ويبرزون الدور الكبير الذى قامت به الطريقة القادرية فى الجزائر •

لقد كانت حركة المقاومة الاسلامية لاتباع الطريقة الصوفية القادرية فى الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى مثلا من البطولة والاقدام ، تحمل فيهــا الشعب الجزائرى المسلم عبء لنضال والكفاح ، ولم يهنأ الفرنسيون فى الجزائر ، بل واجهوا مقاومة فى كل مكان ، وكان جهاد الامير ضد الفرنسيين نموذجا للمقاومة الاسلامية لكل أبناء الامة العربية وهى تخوض أنبل المعارك ضد الاستعمار والصهيونية العالمية فى العصر الحديث •

(١) Julien, Ch. A. : Op, Cit., P, 86.

« الخاتمة »

ان شخصية الامير عبد القادر لا تستمد قوتها من ذاتها وحـدها ، بل انها تستمد عظمتها من شخصيات عاصرنها ، وتألقت معها ، حيث تعكس شخصية الزعيم شخصية كل جزائرى ، وكان مفتاح هذه الشخصية أنها تملك السيطرة على النفوس ، وهى سيطرة لا تعتمد على القوة والارهاب ، وانما تعتمد على سيطرة روحية سلاحها المحبة للشعب والتفانى فى خدمته ، واقامة أسس الحق والعدالة بين الناس بالقسطاس •

وكان الامير عبد القادر يتحلى بقوة النفس ، وشدة الاعصاب ، وبمقدار ما أظهرت من شجاعة وثبات فى المواقف التى تذهل العقول ، كما كانت لا تحيد عن المواقف الانسانية التى ورثها عن دينه ، وتقاليد شعبه فى معاملة الخوارج بالعفو واللين ، وفى معاملة أعدائه بالرفق والحسنى •

بدأ الأمير حياته بالعلم ليكون عالما ، ولما هبت الثورة التى صـار قائدها استبدال العلم بالسيف ، وضرب المثل الاعلى للعلماء الذين يعيشون بمعزل عن أحداث وطنهم ، وبعد أن أجهضت الثورة عاد الى القلم ، فازداد شغفه بالمطالعة التى زودته بالعلوم ومختلف الاداب ، فدرس كتب العلم والفلسـفة اليونانية ، وتعمق فى دراسـة الفقـه الحديث والعلـوم الاجتماعية (١) •

واشتهر الأمير عبد القادر بالهجوم المباغت الخاطف والسريع ، وكان هدفه من ذلك جعل العدو يشك فى خططه وبفقده الاقدام ، ويشل حركته القتالية ، وقد حدث هذا الانقضاض على القوات الفرنسـية فى التافنا ، وكانت هذه المباغتة سببا فى حيرة الفرنسيين من تحركات جيش الامير وسرعة تنقلاته ، وهو الامر الذى جعل حكومة باريس تزيد من قواتها فى الجزائر لمواجهة هذا الامير والقضاء عليه حيث ارتفع عدد القوات الفرنسية قبل استسلام الأمير فى ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧ من ٦٣ ألف جندى عام ١٨٣٩ الى

---

(١) الامير عبد القادر ، سلسلة ابطال العرب ، ص.ص ١٥١ ــ ١٥٢ .

٨٣ ألف جندى عام ١٨٤١ والى ٦٠ ألف جندى عام ١٨٤٤ وأخيرا الى ثلث عدد الجيش الفرنسى بكامله أى حوالى ١٠٨ ألف جندى فى عـام ١٨٤٦ • وكل هذه الزيادة فى عدد القوات الفرنسية ، وكثرة تغير القيادات انما يعطينا مؤشرا على صـلابة المقاومة ، واستبسـال الامير عبد القادر الجزائرى ورجاله أمام هذه القوة الاوربية الغازية (١)

لقد تحلى الامير عبد القادر بصفات القائد حيث كان القدوة والمثال فى ساحات الحرب ، وكان يعرف قدراته وامكانياته ، والوقت المناسب لاتخاذ القرار ولذا كان يتحمل تبعة أعماله ، فلم يعرف الفساد •• ولا يخدم نفسه بل يخدم الدولة كلها • يكره الرجل غير المستقيم ، ولم يلفت ظهره أبدا لعدو ، بل كان ينتظره بثبات ، وكان يحارب كما يحارب الجندى العادى موحدا جنوده بكلماته ومشاركا لهم فى جميع الاخطار ، وهو فى شجاعته وايثاره وورعه يدفع جميع العيون ، ويذيب القلوب القاسـية ، فالكل يعترفون به سيدا ومعلما لهم (٢) •

وظل الامير عبد القادر الرجل الصدوق ، الصبور ، المتواضع ، كان يكره التحدث عن نفسه ، وكان يرفض الثناء على النجاح فى مهمته ، ويعارض خلفاءه اذا سعو للحصول على هدية أو مديح ، وكان مؤمنا برسـالته ، واثقا من نفسه ، محافظا على كرامته ، حريصا على مواجهة المصـاعب ، حازما فى اتخاذ القرارات والسرعة فى تنفيذها وكان الامير منضبطا فى حياته العسكرية ، كما كان صارما فى تنفيذ الاوامر ، ويراقب استعدادات جنده قبل القتال ، ويتفقد أحوالهم ويحل مشاكلهم ، ثم يحارب معهم فى خندق واحد ، ويشرف على تحركاتهم فى ساحة القتال حتى اذا شعر بأن المعركة خاسره ، وانسحب منها متحملا بمفرده المسئوليات (٣) •

وحشد الامير عبد القادر كل امكانياته فى المعارك حيث استشهد الكثير من رجاله دفاعا عن أوطانهم وأرضـهم وكرامتهم ، فحاربوا الفرنسـيين

---

(١) اديب حرب ، مرجع سابق ، ص ٣٦٠ •
(٢) تشرشل ، العقيد هنرى شارل ، حياة الامير عبد القادر ترجمـة أبو القاسم سعد الله ، الدار التونسية للنشر ، تونس فى عام ١٩٧٤ • وأيضا أبو القاسم سعد الله ، محاضرات فى تاريخ الجزائر الحديث ، بداية الاحتلال ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ١٤٧ •
(٣) اديب حرب ، مرجع سابق ، ص ٣٧٨ •

باخلاص واندفاع لابعادهم عن الجزائر ، وكان الامير حريصا على تثبيت دعائم الامارة حرصة على اختيار ميدان القتال ، وكان يفرض على عدوه أرضا عرفها ، وأدرك صعوبة مماتها واستفاد من طبيعتها للمناورة العسكرية • وطبق الامير عنصر المباغته فى معظم معاركه حتى أنه دوخ القواد الفرنسيين أمثال تريزول ودارلنج وبيجو ، وحقق النصر فى غالبية المعارك التى خاضها والتى وصلت الى عشرين معركة •

لقد كان الامير عبد القادر مجددا متسامحا ، استعان بالاجانب لتطوير بلاده فى النواحى التى شعر بأن امكانياته لا تمده بما يريد كاستغلال المعادن ، وضرب السكة ، وصناعة الاسلحة ، والنسيج وتدريب الجيش ، ورغم شدة تدينه فانه لم يكن متعصبا ، بل على العكس كان متسامحا مع من خالفه فى الدين ، واشتهر الامير عبد القادر بحسن معاملة الاسرى •

لقد ظل الامير عبد القادر ثابتا على مبادئه حتى بعد أسره أو حتى بعد ذهابه الى الشام ، ولم يغير رأيه ، ولم يحقد على أحد ، وظل متساميا كريما سمحا نحو كل أعدائه السابقين ، وظل وفيا لمبادىء دينه ، فكان يقوم الليل ويعلم أبناءه على طريقة أبناء وطنه ، وكان مثالا لكل من زاره فى سجنه حيث كان الناس يخرجون وقد انبهروا بشخصيته ، معجبين بعلمه وسماحته وتسامحه •

وبعد أن أدى الامير عبد القادر دوره البطولى فى الجهاد ، واضطر الى الاستسلام فى النهاية عاد الى القلم وازداد حبا فى القراء والاطلاع حيث كان الجانب العقلى عنده هاما ، فألف بعد خروجه من الجزائر عدة أعمال تاريخية ودينية وفلسفية فلقد كان كتابة « المواقف » مثالا لكتب الفلسفة الاسلامية العميقة والتى لازالت آراؤه فيه تحتاج الى دراسات وتعلقيقات ، كما أن كتابه « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » يضم عدة آراء فلسفية ودينية ، وهناك أيضا كتابه « المقراض الحاد تقطع لسان الطاعن فى دين الاسلام من أجل الباطل والالحاد » وهو عبارة عن رسالة مطولة كتبها فى المنفى داخل فرنسا يرد فيها على الطاعنين فى الاسلام وقوانينه • كما كان الامير عبد القادر أول عربى جزائرى ينظم الشعر الذى عبر فيه عن عواطفه بتعبير قوى مؤثر ، كما كان شعرب مماسيا يهدف الى وصف المعارك الحربية بالاضافة الى الحديث عن الفخر الذى يظهر فى بعض قصائده :

لنـا فى كـل مكرمة مجـال ومن فوق السحاب لنا رجـال
رفعنا ثوبنـا عن كـل لـؤم وأقـوالى تصـدقها الفعـال
فكم لى فيهم من يـوم حـرب بـه أفتخر الزمـان ولايـزال

وكان من الممكن أن يصبح الامير عبد القادر من بين المصلحين القلائل فى العالم العربى والاسـلامى فى العصر الحديث لو أتيحت له الظروف الملائمة ، وكانت رسائله تدل على باع طويل فى العلم والمعرفة ، وعلى قدرة فائقة فى تبصر ومهما مكثوا فيها فانهم عابرى سبيل ، ولو مكثوا ثلاثمائة عام مثل الاتراك فسينتهى الامر بخروجهم منها (١) .

ولقد صدقت نبؤة هذا المجاهد المسلم عندما استلهم الشعب الجزائرى منـه روح النضال والكفاح فأعلن الثورة على الفرنسيين فى عام ١٩٥٤ ولم ينته عام ١٩٦٢ الا وقد حقق الجزائريون الاستقلال وأجبروا الفرنسيين على الرحيل من أرضهم .

(١) صلاح العقاد ، المغرب العربى ، ص ١٢٢ .

اولا : الوثـــائق :

١ ـ وثيقة رقم (١)

بيان من الجنرالَ (دانريمون) حاكم بلاد شمال افريقيا ، يوضح فيه بان فرنسا لن تتخلى عن الجزائر وبانه بعد سبع سنوات من المعارك حان الوقت لجنى الفائدة من احتلال الجزائر .

المصـــدر :

أرشيف قسنطينة .

٢ ـ وثيقة رقم (٢)

مكتوبة بخط يد الامير الى الجنرال (بيجو) يطلب منه الالتزام بتنفيذ الصلح الذى وقع بينهم ووافق عليه سلطان الفرنصيص وتعهد لـه بالوفاء بما تم الاتفاق عليه فى ٢٥ ربيع أول عام ١٢٥٤هـ .

المصـــدر :

أرشيف ولاية قسنطينة ـ الجزائر .

٢ ـ وثيقة رقم (٣) :

الغزو الفرنسى للجزائر فىٌ وثيقة امريكية معاصرة منشورة فى حوليات كلية الاداب جامعة الكويت (الكويت ١٩٨٨م) .

ثانيا : المراجع العربية والمعربة :

١ ــ ابو القاسم سعد الله (دكتور) :
ابحاث وآراء فى تاريخ الجزائر . جـ ١ ، الجزائر ١٩٨١ .

٢ ــ ابو القاسم سعد الله (دكتور) :
الحركة الوطنية الجزائرية . جـ ٢ ، (١٩٧٧) .

٣ ــ ابو القاسم سعد الله (دكتور) :
محاضرات فى تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال . (القاهرة١٩٧٦).

٤ ــ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى :
الاستقصاء . جـ ٩ ، (الدار البيضاء ، ١٩٥٦) .

٥ ــ اديب حــرب :
التاريخ العسكرى والادارى للامير عبد القادر (١٨٠٨ ــ ١٨٤٧)* .

٦ ــ تشرشل : العقيد هنرى شارل :
حياة الامير عبد القادر ، ترجمة ابو القاسم سعد الله (تونس،١٩٧٤).

٧ ــ جلال يحيى (دكتور) :
السياسة الفرنسية بالجزائر ، ١٨٣٠ ــ ١٩٦٠ (القاهرة ١٩٥٩).

٨ ــ جــلال يحيى (دكتور) :
المغرب العربى الحديث والمعاصر (الاسكندرية ١٩٦٣) .

٩ ــ شــوقى الجمــل :
المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث (القاهرة ١٩٧٦) .

١٠ــ صلاح العقاد (دكتور) :
المغرب العربى (القاهرة ١٩٦٠) .

١١ــ محمد خير فارس (دكتور) :
تاريخ الجزائر الحديث (د.ت) .

١٢ــ محمد عبد القادر الجزائرى :
تحفة الزائر فى تاريخ الجزائر والامير عبد القادر ، (بيروت ١٩٦٤) .

ثالثا : دوريـــات :

« الامير عبد القادر الجزائرى » .

* سلسلة ابطال العرب ـ العدد ١٣ ـ بيروت ١٩٧٥ .

رابعا : مراجع اجنبية :

1 — Arnaud, L. : Siege d'Madhi, (Paris 1864).

2 — Churchil, C. H. : The life of Abdul. Kader, 1867.

3 — Julien Ch. A. histaire de l'A lgerie Contemporoine, (Paris, 1964).

4 — Hardi, G. : Histaire des colones Francaise, (Paris, 1929).;

5 — Revie d'Histore moderne et contemporaine, (Paris, 1967) .

6 — Sholer William. Sketches of Algiers, Boston, 1826.

7 — Martin B. G. Moolem Brotherhoods in 19th century Africa, London, 1936.

8 — Lucas, Dubrelon : Bugeaud, Le Soldat, le depute, le Colonisateur, (Paris, 1931).

9 — Valee to Min Sec. d'Etat au dep de la Guerre, 17 Aug., 1839 in ANP. F. 80. 16730 (Archives Nationales des Paris).